محمد قطب

صدأ القلوب

قصص قصيرة

الكتاب: صدأ القلوب (قصص قصيرة)

الكاتب : محمد قطب

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

قطب ، محمد

صدأ القلوب

/ محمد قطب – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٢ -٥٩٠- ٤٤٦- ٩٧٧- ٩٧٨

.. ص،.. سم.

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٧٤٧

صدأ القلوب





صدأ القلوب

(١)

تسللت عيناه عبر الزجاج المغلق تمسح لافتات المحلات. كان الصباح نديا، وشمس النهار تسخو في وداعة يوم شتوي دافيء. وبـــدت في الأفــق مزق السحب تتداخل وتتلاشى في هشاشة محببة. ظللت أبحث عمن يصلح لي زجاج العربة، وسط شارع ممتليء لحافته لا مكان فيه لقدم. أبطأت وأنا لا أكف عن التحديق. فكل المحلات متشابهة. ولكنه لمحني فأشار إلي بيـــده. كان قصيرا مكتنزا. توقفت فتقدم وفتح الباب.

جابهتني بسمة ثرية تأكل الوجه كله. أسرتني البسمة وشدتني إليـــه ملامح دقيقة. أفهمته الأمر. بقفزة واحدة كان داخل المحل، وبقفزة أخرى عاد والمفتاح في يده. وبدأ يفك غطاء الباب.

بدا لي الباب جبا غويطا منسوجا بخيوط العنكبوت. وبدأت أصابعه تحرك الأسلاك وتخلع الزوايا. أكدت له في صوت مرتفع يحمل خوفا وقلقا: أن «الأكرة» في حاجة إلى إصلاح. «الأكرة» فقط. حدجني في صـــمت، وغادرت البسمة وواصل خلع الأسلاك، والزوايا والدوائر.. و.. وتكومت الأجزاء وسقط الزجاج في الفراغ.. فراغ الباب الأجوف الخرب. خشيت على نفسي من مطالبه. فإن تمتلك سيارة في مدينة مزدحمة، وتسير بها فوق أرض مبقورة، وتتركها نهبا للأيدي والحجارة، وتدفع مخالفات سجلها من

لا يقرأ من راتب تتراقص أرقامه.. أمر يستدعي القلق وأنت ترى الرجـــل ينتهك العربة ويعري الباب ويفضحه فيتحول – في لمحة خاطفة – الأمـــر الصغير إلى شيء كبير بضخامة الهم الذي يصاحبه.

(٢)

كان وهو يرش الماء يتهادى في حركته. كان يمسك الكوز بأصـــابعه فتنساب المياه خيوطا رقيقة تترامى فوق أرض متربة غار في جوفها شـــريط الأسفلت. لم يفتني المعنى، فنحن في الشتاء والسماء هذه الأيام لا تبخـــل، والأرض مبلولة، والطين يعكر وجه الأرض. قـــدم لي مقعـــدا وأعطـــاني سيجارة، وأتى بفنجان القهوة.

– ولكن الأرض مبلولة لا تتحمل المزيد. وضحك، وسوى ياقة قميصـــه، وأشعل سيجارة.

– صيفا وشتاء.

– ولو كانت السماء تمطر.

أدرك الدهشة، فسحب مقعدا وجلس، تعكر الوجه وانـــداحت في العين رقرقة باهتة:

–كان فناء البيت واسعا وفقيرا.. ولكنه نظيف.. في صباح كل يوم تنهض أمه فتكنسه وترشه بالماء، وتحرص على أن تبلل الأركان الأربعة. أذكر أنها ما قصرت يوما، حتى وهي مريضة كانت تتحامل على نفسها وتقوم بـــه. كانت تمارس الأمر كأنه طقس جميل محبب.

وتكورت الدموع وسقطت، وتلوى خيط الدخان.

ودخل إلى المحل رجل رث الثياب ومعه مبخرة يتصاعد منها دخان أزرق اللون ورمادي.. وتنتشر في المكان رائحة طبقة تتمشى في كل ركن وتتبعه في كل مكان.. دخل وخرج وخلف الدخان والرائحة ولم ينطق.

أمال وجهه كله إليّ ومسح دمعاته:

حتى البخور!! كانت أمي تداوم على تبخير البيت، كانت تضع البخور فوق الجمر، وتلف به وهي تنفخ فيه.. وعيناها منداة بالدموع.. ولسانها يبتهل إلى الله أن يترل رحمته، ويفيض الغيث ويطرد الجن والشياطين.

قدمت إليه سيجارة.. ونهضت وأشعلتها له، ثم طلبت فنجانين من القهوة السادة.. وعدت أواجهه، ورأسي يقترب منه، بل تكاد تلامسه.. وأنا.. يأخذني هذا الذي طفا على وجه الرجل وتمدد. كانت تلوح في هذه اللحظة – لحظة أن غاب الرجل بمبخرته – سكينة تترقرق على وجهه وتنام في عينيه.

لم تفتني رعشة خفيفة بأسفل الذقن، وتقلص في صفحة الخد الأيمن.. وقال فجأة.. والصوت ترنيمة خافتة تبوح بحزن قديم.

– ومنذ أن فتحت المحل.. وأنا لا أنقطع عن اثنين.. الماء والبخور.

ونهض فجأة.. ولاحت عليه أمارات اليقظة وتوهجت عيناه:

–كانت أمي عظيمة.

وتوقف لحظة خطف فيها شوقي.. لحظة صمت تشبه الوقفات الصامتة التي توحي بالترقب، ومد يده كلها في الفراغ.. وسدد إصبعه في حدة كمن يفقأ شيئا.

– مع أنها حرمتني من الميراث.

واستدار، ودخل إلى المحل، ووقف أمام السندان وامتدت يده إلى المفتاح.

(٣)

وضع الأكرة داخل السندان وضغط عليها، صاح دون أن ينظر إليَّ أو يخلع بصره عن الأكرة:

– القلب في حاجة إلى تغيير.

وصلني الصوت فطمأنت نفسي أن الأمر لا يعدو قلب أكرة، وأدرت بصري إلى الشارع أتلهى بالوجوه، ولكنه خبط بيده على الطاولة وفك الضغط على الأكرة.

– ما رأيك؟

– ليس لى رأي.

– كيف وأنت صاحب الأمر؟

– في أى شيء!

– في القلب.

ضحكت فضحك، لاحت أسنانه مفلوجة فحدست أنـــه طيـــب. لم أستطع أن أتخلى عن موروثاتي القديمة، ولم أنس أن السنة المفلوجة تجلـــب لصاحبها الخير وتفتح له أبواب الرزق الموصدة. وبالرغم من أن عم عبده كانت أسنانه تسمح بمرور حبل وكان يصر طعامه في منديله الخشن، ويترنم – صافرا – وهو يوضح كيف يأتي الخير رامحا. إلا أنه كان يؤكـــد أنـــه الاستثناء. وكان يحكي وهو موقن تماما بما يقول. وظللت أحمل كلامه لأنني أدركت فيه صدقا لم أعهده كثيرا في الناس.

وحين اقتربت من الرجل بدأ أنه ليس كل صاحب حرفة جبـــارا!! تذكرت ما يقال عن مغالاهم، فارتجف القلب وتموجت في داخلي سحابات قلق معقودة بخوف يصاحبني منذ امتلكت العربة. وترقرقت عيني بـــوميض متوسل وهو يقلب الأكرة بين يديه وهو يريني موضع القلب، وهو يميـــل علي ويبتسم، وهو يعتدل شامخا ينتظر. كان قلب الأكرة صدئا. شـــائخا مشروخا .. فأدركني وجل لا يبين على قلب الدم الساخن.

مسكته بين أصابعي فعلق الصدأ وشاع في الجلد. وتملكـــتني هـــزة طويلة اعترتني حتى كدت أتطوح. أدركت أن ما يحدث لى ناتج عن صدأ ما. وأن البنت التي كانت حبة قلبي يوما قد تحتاج إلى قلب القلب حـــتى تذوب طبقة الكلس الصدئة التي تمنع مرور الدم وتسلخ منه سخونته.

أسرع وهو يتملاني.. وضغط على الحروف بطريقته:

– كل شيء له عمر يصدأ فيه.. حتى قلب الإنسان.

تمتمت في همس مسحوب لا يبين:

– شاخت القلوب.

ولما حدق في، وظلت عيناه تكبان فوق وجهي بريقا مدهوشا قلـــت في حدة حزينة:

– القلوب في زماننا صدئت قبل الأوان.

أمال رأسه وبدت عيناه الغامقتان تضيئان وتزمان معهما جلد الجفن:

– صدقت.. صدقت والله.. نادرا ما أتحدث مع زبائني لكنك أخـــذتني.. فتحت قلبي إليك ولكنه لم يصدأ بعد، ولكنه سيصدأ، فـــالهموم كـــثيرة، والحاجات فوق القدرة، والطلبات لا تنتهي.. هيه.. أغير القلب.

– ألا يمكن إصلاحه؟..

ظل صامتا ينظر إلي.. لم تفتني لمعة عينيه المدهوشتين فأسرعت قائلا:

– إذن غيِّره.

ولم أدر كيف خرج مني دون وعي ما، في تلك اللحظة المقبوض فيها على الأكرة صوت رقيق واهن.

– ترفق به.

ولم أتحمل «طرقعة» المطرقة، ولا ضغط السندان، ولا قرصات المفتاح ولا الاستسلام الهامد للأكرة.. فأدرت وجهي كله وأطلقته على الوجوه.

(٤)

وقف منتصفا، بدا طويلا رغم قصره، ملويا رغم اكتنـــازه، تلـــوت الأكرة بين أصابعه، جلاها فلاحت في العيون ذات بهاء، كانـــت أصـــابعه

تلامسها في حدب وحنان.. ثم فجأة هشت يده القلب الصديء ورمـــاه.. كان متكفئا خربا، صدئا، مهملا.. ولاح كما لو كان يئن أنته الأخـــيرة، ويودع عالما مترعا بدفء ملمس الأيدي..

وضع مكانه قلبا آخر فتيا، علاه ينقط من الزيت، ودلكه بين أصابعه وأدفأه.. مرر عليه السلك وأداره.. فدار.

(٥)

خطفت عيني امرأة محبوكة الخطو، ملفوفة بالثياب الصوفية الأنيقة. هبت على المكان موجة من العيون اللاقطة. فأشعة الشمس الدافئة المخترقة تجمعات من الغيم هنا وهناك قد خففت بعض الحذر الشتوي عند النـــاس وسمحت لهم باستخدام ما عطله البرد. لا أذكر أن قلبي نـــبض للملاحـــة والوسامة منذ أن جاء طفلي الثاني. ثمة أشياء تحدث فلا تقف أمامها كثيرا. لأنها – وهي تحدث– تبقى ولأنها تكون قد مست شيئا كان منسيا ومهملا

حين سقطت عيناي على المرأة كان شيء ما في داخلـــي يتحـــرك.. يتحرك في بطء.. يتحرك في بطء شديد.. وكنت أحس بتنميل من يفيق من نوم طويل.. أمالت المرأة الوسيمة تجاه المحل.. رأسها وابتسمت، فـــأدرت رأسي في الاتجاه نفسه.

كان الرجل القصير المكتنز يبتسم. رفع يده وحياها ودعاها وضحك. مرقت المرأة كشعاع شمس شتوية. دهمته حالة غريبة من الذهول فرشـــت ملامحه ولكنني صدت تكشيرة تتكون، وعبسة تتجمع، وزمة اســـتحكمت على الشفتين.. رآني محدقا فيه ومتسائلا فبادرني في حدة:

– مدرسة الولد.. شاطرة ولكنها منشار.

ضحكت فجأة. لم يعد المنشار اسم آلة، ولكنه أضحى كلمة تعقد الألسنة وتلوي القلوب، وضعت يدي على جيبي. فمنشار هذا الزمان ينشر القلوب والجيوب.

– ابني في السنة الثانية الابتدائية.. ما شاء الله.. وهي تعطيه درسا خصوصيا.

– كان يجب أن تساعده.. أنت..

– المشاغل كثيرة، وأنا لا أتفرغ له.. وأنا لا أقرأ ولا أكتب وأريده أن يتعلم.

وتداخلت الأجساد أمام المحل يطلبون منه عملا ما، مد الصبي إليه «الكوريك» فرفعه إلى أعلى ولمسه بأصابعه وانحنى عليه ناظرا في داخله، وركنه أسفل الطاولة وقال في حسم:

– ثلاثة جنيهات.

– هذا كثير على كوريك.

– غيري يصلحه بخمسة. دس الجنيهات الثلاثة في جيبه واستدار. كانت المرأة تطالب بإصلاح «القفل»، قلبه في يده، حرك فيه المفتاح فاستعصى فطلب جنيها.

كنت ألاحظه وهو يضع الجنيهات حتى تورم الجيب وأطلت ثنياتها الورقية كشارب فأر يتلصص. أمال رأسه كمن يتوقع أحدا:

- أتعرف كم تتعاطى المدرسة؟

- كم؟

- ثلاثة جنيهات بالتمام والكمال.. ولا تستحقها.

- إنها تعلم ابنك.. والحياة كما تعلم قاسية.

- ولكن المبلغ كتير.. إنها ترسم له البطة والديك.

وتلعب معه بأعواد الكبريت.. وتمسك أصابعه وتعد عليها.. وتأخذ ثلاثة جنيهات.. والكبريت من عندنا نحن، والورق أيضا.

- ألا تطمئن إليها.

- لا أطمئن لمدرس أبدا.. وإلا قل لي.. ماذا يعملون في المدرسة؟

أمال رأسه كمن يتوقع أحدا.. وأخرج سيجارة وأشعلها.. وطلب فنجانا من القهوة.

(٦)

وقف الفتى الصغير اليافع أمام المحل. أدار رأسه يمنة ويسرة ثم دخل وغالب قليلا وخرج. كان النهار يثبت أقدامه ويزحف إلى الضحى. وقف منكوش الشعر يرتدي بنطلونا وحذاءً عاليا. أخرج علبة سجائره «الكنت» وأشعل واحدة.

عاد فدفسها خلف بنطلونه في جيب صغير مدقوق. تحرك فلاح البنطلون باهتا على الفخذين.. كان - قديما- وهي ترتدي البنطلون الجينز

حورية تداعب الشباك ولا تدخل. كان كل ما فيها يتفتق على النسيج، ويسيل عبر الخيوط والمسام.

كانت تشتهي طعم الصيد وتتأبى على الفريسة. وحين تواجه الخطان – كنت خطا – واشتبكا، تهربأ النسيج وانفك. غلظ القوام وغطاه رداء واسع فضفاض. ومازلت أحمل في الذاكرة صورة شبحية لقوام طالما تفتق في الجيتر، وأسر قلبي وصادني به.

رمى السيجارة وسحقها بعنف ظل ضاغطا عليها بحذائه.

أخرج المشط ومشط شعره، وامتدت يده وضغط على كومة الشعر في الخلف وعلى الجانبين، ثم نفخ في المشط وأعاده ببطء إلى جيبه مرة أخرى.. لاصقه «الأسطى» وهمس في أذنه.

نظر الفتى إلي بركن عينه. ولازمه صمت طويل. لم أره يفتح فمه، حركاته تلقائية ونداءات رئيسية ترتد إليه عبر عينين تتسعان حينا أو تضيقان حينا آخر مع حركة حاجب كث أو انفراج خفيف لزاويتي الشفتين كان في انحناءته خفيفا خفة الحركة التي تشي بتوازن واضح بين الجسم والمسافة، وثمة مهابة تبدو من وقفته ومن التواءات عوده النحيف.. وفتح الباب.. أطل عليه من عل، وانحنى فوقه، أعاد الأسلاك وستر العري، وثبت الأكرة، وعلا الزجاج، وانخفض. وكانت انحناءته واحدة. في ظل هذه الانحناءة الواحدة أنهى عمله. فتح الباب. وأغلقه ثم صفقه وعاد.

ارتفق الطاولة ومد يده إلى الجيب الخلفي وأبقاها قليلا ثم سحب في تلذذ بطيء علبة «الكنت». ضرب عليها بأصبعه وأخرج واحدة. وضعها

بين شفتيه في الزاوية اليمنى وظلت تترقب قداحة فضية اللون. توهجت القداحة وتصاعد الدخان. خرج الدخان كثيفا ملتويا. ثم رمى بها ولم يسحقها.. ظلت السيجارة تعطي دخانها خيطا دقيقا متواصلا على حين مضى هو إلى العربة الأخرى التي تنتظر أن يأتي إليها.

(٧)

كان الرجل يجلس على كرسي صغير داخل المحل. وحين رآني أدخل عليه نهض واقفا، أحسست أنه يعاملني كصديق قديم. أكبرت فيه هذا الإحساس وهو يحيط يدي بكلتا يديه. ومرح في داخلي طيف مريح أشعرني بطمأنينة.. عجل وباعد بيني وبين الجيب المتورم بالأوراق المالية. ولكنني صدت همودا يحط عليه ويسرع فوق ملامحه. فارقته بسمة كانت تشع على الوجه منذ الصباح. وكانت بسمته تتناثر مع زخات الماء. وها هي تفارقه وقد خلفت تبيسا وجفافا.

أفهمته أن الفتى أنهى عمله واتجه إلى عربة أخرى. ظلت عيناه ساهمتين عالقتين بوجهي. وحط صمت ثقيل لفنا برهة. وقف الصمت سياجا أمام ضوضاء الشارع. اللحظة قصيرة ولكنها سلخت زمنا واقفا لا يصله صوت ولا تخدشه حركة. وتحرك الصمود وانزاح، وبقي حزن قديم يتماوج في العين.

لم أتصور يوما أن أقف في مواجهة رجل قصير مكتنز يمتلك محلا لتصليح أبواب السيارات وجيبه يمتليء للحافة، وبعض الهم تشي به ملامحه.. وأنا أزوره لأول مرة، ويستبقيني ويحاورني.

.. لم يعد الهم مقصورا على فئة الرواتب المحدودة، ولكنــه تضــخم وتمدد وتمطى، فطال الكل. نبهته إلى الأمر ثانية، فارتجف في إفاقة مفاجئــة ومد رأسه تجاه الصبي:

– أتعرف كم يأخذ في اليوم؟

ولما رأى صمتي وترقبي وانطباق شفتي.. قال في تنهيدة عميقة:

– خمسة جنيهات كاملة، وليست كثيرة عليه.. أنه يستحقها.

وتمتمت في همسة مجروشة.

– خمسة جنيهات! والتفتّ بكاملي إلى الصبي.

كانت انحناءاته محسوبة. وحركته متزنة ورأسه مائل على عنقه والمفك في يده، والسيجارة في ركن فمه.

تذكرت في لحظة خاطفة – برقت فأضاءت– عمرا طويلا ضاع مــا بين الكتاب والعمل.

– لم يكمل تعليمه، خرج من المدرسة، لم يجد نفسه فيها.

– أحسن صنعا.

تناول قفلا وقلبه بين يديه، أدخل فيه مفتاحا بصعوبة، حركة يمينــا ويسارا ثم رمى به. كانت الحركة عصبية، وكان صوت الارتطام مزعجا.

– هذا الصبي أخي.. أعطته أمي وحرمتني.. أعطته ليتعلم.. فضيع ما أعطته وجاءني.

ضرب الطاولة بيده فتناثرت المفاتيح والمسامير وتكورت السيور.

– الآن كلهم يأتون إلي..

نظرت إلى معصمي وابتسمت. أخرجت حافظة النقود وانتظرت.

نظر إلى في حسم:

– ثلاثة جنيهات.

بزغ ضيق فوري لم أتحمله. لم يمض على الأمر كلـــه ســـاعة زمـــان واحدة. لم تفته نظرتي القلقة ولا انقباض أصابعي على الحافظة.

– المهم هو العمل.. لا يشغلك كم يستغرق من زمن.. أنت جديد علينـــا ولكنك ستثق فينا.

– المبلغ كبير على إصلاح أكرة.

– لا تقل إصلاح أكرة.. قل إصلاح القلب لقد أعدنا للقلب حركته.

وضحك. كان يضع النقود في جيبه وهو يضحك، واستدرك لأمضي ولكنه استبقاني. طلب لي هذه المرة كوبا من الشاي الساخن وأصر علـــى احتسائه.. وحرك الكرسي بعيدا.. وجلست أنتظر كوب الشاي الساخن.

الزمان الذي كان

تدحرجت من أمامه المرئيات دون أدنى اهتمام، فالحرارة وأدت فيه إمكانية الفعل والحركة، وسحبت من العين مجال الرؤية، وبؤرة التركيز.

سقطت جفونه في كسل لزج وجرجر ساقيه في همود. أحس عبئا ثقيلا يفيد الخطو، وخدرا هائلا يمرح في الشارع ويحط على الوجوه والأذرع والسيقان.

فقدت الأشياء بريقها تحت صهد الشمس.. فاختنقت النفوس، وضاقت الصدور، وبدت الملامح على الوجوه باهتة ومستفزة.

انسحب إلى الداخل ومضى في تثاقل وتباطؤ على حين لهث البعض هنا وهناك.. ولكنه في اللحظة ذاتها لحظة أن خلع بصره عن الطريق وجدها أمامه.. تسمرت القدم وأصابه ما يعشي العين تواجه ضوءا باهرا لا تقوى عليه بعد ظلمة تعودت فيها على الظلال المعتمة.

جفل وارتعد، واختلج الجفن اختلاجة مدهوش لا يفيق.

صلب جذعه وحدق في قوة، كان حائرا وقلقا، رمقها فراعه أنها لا تقل عنه دهشة وتعجبا. احتوتها عينه خلسة فمد لها يده بفعل القوة التي هزت كيانه وعجز عن السيطرة عليها. أُخذت من المفاجأة لكنها لم تحرجه. استكانت أصابعها في يده؛ فحدَّث نفسه أن القلب لا يزال يملك النبض وإن ران عليه الصدأ.

انزويا تحت «باكية» بارزة فعظاهما الظل. بادرها في حذر:

– كأنني في حلم!

أزاحت جدائل شعرها الأصفر فلاحت شحمة الأذن خالية من قرطها الذي اعتاد رؤيته:

– من يصدق؟

– عمر طويل.. عشر سنوات؟

استدار فأعطت الشارع ظهرها وتمتمت:

– لم تتغير.

– لم أتغير!!

في الغياب كنت أتصفح الوجوه، أقرأها وأتملاها، علني أجد فيها وجهك. رأيت الأبيض والأسود، والرمادي الداكن، البيضاوي والدائري والمثلث.. لكنني افتقدت فيها جميعا جبهتك العريضة التي كثيرا ما وشت بعمق الشعور وحرارة العاطفة، افتقدت الخيوط الدقيقة الخافية التي كانت تجعل داخلك منسابا في رقة بالغة.

ولكنه.. حين لمحها واحتضنها نور البصر لحظ خيوطا دقيقة تكاد لا تبين فوق الجبهة، ولم تفته ضمة الخيوط حين عبست لحظة الدهشة.

وضح له أن الزمن وراء العبسة والتغضن.. وحركت يدها.. فتأرجحت حقيبتها، وكان اللون الأخضر يميز ملابسها بوضوح.

أعرفك من الحركة وأعرف فيك عشقك للأخضر. كم حيرني هـــذا الرأس الدقيق بامتداد العنق، وحدة الذقن. كان حين يستكين في حضـــني يرقص العالم لنا، ويفور داخلنا بالحب والطهر.. أكان يجب أن نفترق؟!

– من يصدق أننا نلتقي بعد هذا العمر الطويل!

وابتسمت... كانت البسمة

– رغم الحذر الواضح منها

– تشي بتفتح زهرة مبتسمة فاجأها قطر الندى على غير ميعاد.

– ما دمنا أحياء.

– ضعنا في القاهرة. طوحت برأسها فلاح انحدار العنق حتى الكتف، بدت العنق مستقيمة ومكتنزة.. وكانت دقيقة منحوتة.

– كان لابد أن نتوه ما دمنا.. قاطعها في تودد:

– لكنك ما فارقتني أبدا.

تسطحت عيناها وبدا له كأن البريق قد خبأ فجأة.. وعلا صـــدرها الممتلىء إثر تنهيدة محبوسة.

تنظرين في ألم، وينضح من النظرة توحش مخيف.. أين منها – الآن – أنت.. حين كنت تطبقين الجفنين على همسنا المعطـــر بالحـــب، وتـــرخين الرموش على قلبين يستدفئان بصهد الدم..

كان رمشك خطين من نبات السوسن يوحيان بالأمان.. فمـــا بـــال العين انسحب منها الوهج.. وبات الحب غريبا وباردا.

– علمت أنك تزوجتك.

– وأنت أيضا.

التقيت عيناهما في دهشة، وفرش الوجهين شعور «طازج» لوقته لكن وجهها سرعان ما استسلم لهمود غريب. لاحظ أن الذقن المسحوبة ترتعش، وجلد الرقبة الطويلة يتقلص. حركت شفتيها فلاح خيط أبيض لأسنان مصقولة.. ولمح في التو سنا مكسورة..

لكن الزمة العنيفة أطبقت على الشفتين في قسوة..

– أكان يجب أن نفترق.

– لعلك حين اخترت وفقت.

أسند ظهره للحائط، وأثنى ساقه. حطت عليه كآبة عاتية، داخله صمت غويط.. وأحس أنه قد يبقى على صمته دهرا، فاعتدل وأحاط بنظرة مسترحمة، كانت تنتعل حذاء لامعا بحلية فضية على الجانب، وشريط مفضفض على باطنه.

– ما زلت تحبين اللون الأخضر والحذاء الـ...

وأخرسته نظرة عاتية زلزلته. كان طوال الحديث حذرا خشية أن تأتي تلك اللحظة، لحظة أن تزلزله العين التي كانت بحيرته وظله ودغله.. لحظة تهز كيانه وتسحب نفسه إلى غور مظلم من الفشل فتئد الأمل، وتقطع الخيط الذي جاهد أن يستره خلف الذاكرة.

– كان موقفا صعبا.

أنت لا تصدقين أنني كنت ألهث في البحر عنك، لقد انقسمت نفسي إلى شطرين، كنت أجري وراءهن، أبحث عن الشعر المناسب في عفوية، الأصفر من أطرافه والداكن الصفرة في الوسط، كان يقودني فأسرع ويتوه في عيني العالم، أضع كفي وأفرش الأصابع.. كانت كفي تميمة وكنت تميزين جلد أصابعي باللمسة.. وكن حين يلتفتن بغتة لحركة كفي يغوص قلبي وأغضى حياء.. وأعرف أنك مازلت غائبة لأنه في استدارتك – وهذا ما لم ألحظه في كل الوجوه – يلوح الوجه بدرا يغمره البهاء.. فما بال وجهك الآن يكفهر ويستوي مع كل الوجوه!

– لا أنساه.. ثم..

وزمت شفتيها بما يوحي بالقرف؛ فهاله الأمر وحدَّث نفسه بأن الأمر لا يريح.

–كان يجب أن تقول لي..

– لم أستطع..

– لكنك تركتني صباحا بأكمله أنتظرك.. وكنت أرى النيل أمامي يبكي..

– كان الأمر فوق طاقتي..

– حملت ألمي واتصلت بك فتهربت..

– أعترف أنني أخطأت..

– أكان حبنا خداعا..

– لم يكن سوى الحب خالصا.. الحب بأسمى معانيه وأنت تعرفين.. لــوت وجهها، وفتحت حقيبتها، أخرجت المنديل وبصقت فيه.

– أنا الآن أعيش خطئي..

– لقد بعتني..

–.. وندمت.. أتختزنين في داخلك كل هذا الرعب والتوحش، كنت أملا يحدوني، ونفسا تشجعني، تشملينني بحبك، وكان قلبك متـــدفق الـــدفء، ونبض الحس، وضحكتك غيمة الضوء تظلل الوجه وتنعش الفؤاد. كنت تعطينني البراءة وأعطيك الأمان.. وقف الزمان كالديدبان بيننا.. وكـــان الموت.. فوق طاقتي انسحبت لأن عبئا ثقيلا انضاف إلى أعبائي، فحصنتك من المكايدة، وانسحبت، وفي انسحابي إكبار لك، وحفاظ علـــى الحـــب، حفظتك في نفسي، وها أنت تقتلينني بتوحشك.

واهتز فيها الكيان الدقيق المتناسب. غطت وجهها كله بالمنـــديل ثم أبقته لحظة وسحبته في تمهل بطيء.. واجهته ثم لوَّحت به في نفور.

– كرهتك يومها كما لم أكره أحدا في حياتي.

وكالحصى المجروش تقلص قلبه وانبسط. والدم المهووس ينثال داخله باهتا وباردا وميتا.

– كانت الحياة معك ميلاد يوم متجدد، كنا نولد كل يوم مرتين في اليقظة والمنام.. وها أنت سحبت مني الضوء وألقيت علي الظلال.

– لكننى مازلت أحبك.. حفظتك مني وداومت حبك..

- وما الفائدة؟

- كلما تشتد بي الأيام أعيش فيك..

- أهي جميلة؟

اعتدل واقترب منها مندهشا:

- من؟

- امرأتك..

ارتاع، واستدار، فبان لها بجانب وجهه الأيسر مهموما ومحزونا. تقلصت شفتاه، وداومت عينه الرعشة. لاحظت قربا واضحا بين الرقبة والكتف وفوضى في الشعر عند مؤخرة الرأس ولم يفتها التهدل في الكتفين.

- لم تكن يوما ما مثلك.

- لكنك منذ صباح ذلك اليوم لم تعد شيئا مذكورا.

أدارت ظهرها له.. مد يده وعينه وحسه. حاول أن يستقبيها لكنها استقبلت الشارع ومضت.

وقف مذهولا.. غطت عينه غيمة ظل سوداء.. تابعها فأحس أنها أخذت منه عمره وسحبت منه أنفاسه، فالتوى عليه قلبه. مالت نفسه أن ينطلق وراءها، أن يعرف مسارها واتجاهها.

فعله يداوم الرؤية لها من بعيد.. فلا يعقل أن تظل في الذاكرة عشر سنوات كاملة ثم تمرق من أمامه كالشهاب ولا تخلف سوى الهم والحزن. بدا له الأمر صعبا وقاسيا. وهو يرى البناء الذي أقامه في داخله يتصدع

ويتهاوى.. حدث نفسه في هوس صوتي مختلط بأن الانهيار قد أتى على كل شيء.. تذكر بيته، وامرأته.. فداهمه الألم.. ومضى وراءها متسحبا.. كان يخلع خطواته من الطريق خلعا. صوب نظره تجاهها.. فتلاشت الأشـــياء في عينه ولم يبقى سوى جسد جيد التكوين وخبطات حذاء لامع تعكس حليته المفضضة وهج الشمس. ضاق صدره وعجز عن التقاط الأنفاس.

كان الهواء ساخنا، والجو متربا، والشمس تشتعل. نشـــع العـــرق فسالت اللزوجة طرية مطاطة، ضايقته أنفاسه، وعرقه، فشعر بدبيب النمل يرعشه ويئزه. عاد النظر. سدد بصره بقوة، أظل عينيه بكفه ليرى أوضح.. سقطت الشمس في عينه فتاهت الرؤية، جاهد فلمحها من بعيـــد نقطـــة صغيرة باهتة الملمح والتكوين، خطفها سيل البشر، وسرعان ما ذابـــت ثم غابت وخلفت في نفسه الحسرة. سقطت من عينه دمعة، شال يده بجهـــد كبير ومسحها. لعن اليوم والشمس والصهد. برق في ذهنه وجـــه امرأتـــه وتمدد لسانها في وعيه.. فندم أن رآها.. فماذا تجدي الرؤية حين يصـــحبها الانهيار.

مال إلى مقهى، وجلس كابيا ومتهدما. حدق في كـــوب الشـــاي. يتصاعد البخار ثم ينحسر. لا يكف عن التحديق، ساحت معالم الأشـــياء.. وانحسر البخار. حدث نفسه بأنها كانت الملاذ حين يضيق البيت.. ترى من أين يأتي الملاذ وقد تم الصدع.

وأصابه الذعر حين فكر في البيت فدوام التحديق..

وظلت الأشياء في عينيه مبهمة، أسند رأسه بيديه وطغى الألم يعتصر عينيه.. وتقاطرت الغيمة.. وانثالت الكلمات في رنين صوتي محزون. لمس شفتيه فتأكد أنهما مطبقتان في زمة قوية.. لملم نفسه وحدق في الفراغ..

وكانت الكلمات لا تزال ترسل صداها الحزين.

كنت أعيشك بعين الحلم والخيال، فلماذا حين وجدتك بعين المشاهدة بهت الزمان وضاع مني اليوم.

سفر الحلم

كان المشهد كله باهتا. طاله تغير أساء إلى ما فيه وكأنما يـــراه لأول مرة. الردهة ضيقة، والجدران واطئة، والساعة الدقاقة خشـــنة الصـــوت، والأريكة بدت بطول قامة الإنسان. وكان المدخل إلى الغرف الخلفية ضيقا ومعتما، والسقف في المواجهة يكاد يترلق. شدته غرابة الستارة حين لمـــح فروع الأشجار ومناقير العصافير. إلى اليسار وعلى الحائط العريض واجهته الصورة. شدت الوجه بسمة مزمومة وراحت خصلة الشعر النائم تداعب ذا الجلباب الأبيض يقف قلقا ومستفزا.. وبدا الأمر محيرا.. وها هو يجلس له ويقرأ في صحيفة.. من هو؟ لا يدري! باحت الخطوات بحركة قادمـــة. تقدمت. نظر إليها، وإلى الصورة، كاد إطار الصورة يتمزق فأســـرعت في الدخول. الوجه مليح، والجسم نحيف، والعين واسعة، وبياضها يترجـــرج كموج بحيرة هادئ..

لم ير المشبك الذهبي الذي قدمه حين خطبت. وتنازعته رغبة دفينـــة ومشروعة في أن يمسك يدها، أن يقبض عليها ويلمس الدفء الذي غاب عنه عاما كاملا، وأن يحتوي بالعين نسائم القلـــب الأولى ورائحـــة الخـــد الجميل، أن يعلم أن الغربة صقلت وجدانه وأرهفته. وكان التروح من أجل بناء عش لمليحة الوجه يؤجج المشاعر على أتون من آلام الوجد وجفـــاف الغربة. وها هو الحلم يقترب ولم يبق إلا أن تعطر «واسعة العينين» جنبات المكان بعطرها المميز وروحها المتوثبة.

جلست ولم تسلم. آلمه ألا تمد يدها لتمسك يده بعد عام كامل وهو الذي يقاوم قلبه أن يأخذها بين ذراعيه ولو كان الجميع يحيطون بها، وليس ذلك الرجل ذو الثوب الأبيض الذي لا يعلم مشروعية وجوده.. جلست على طرف الأريكة تكاد تتداخل وعيناها ترتخيان على ملامس السجاد. لم يكف الرجل ذو الثوب الأبيض عن النظر إليها، وهو لم يبعد عينيه عن وجهها.. وظل يصطاد حركة عين منها ليتواجها.. اجتاحه وجع في القلب.. وتساءل ما الذي يحدث؟. الرجل يتحرك في المكان بحرية يفتقدها هو، وهو ينتظر أن تنظر إليه نظرة خاصة. التزمت الصمت وسكنت عيناها ووشى الوجه بهم واضح.

وشت حركة الستارة بمقدم أحد ما، فاختلطت المناقير بالأوراق الخضراء. وحين رن التليفون اختطف الرجل السماعة وبدا عليه الاهتمام.. استند بكوعه إلى الصوان ثم ضحك، تمددت ضحكته حتى طالت كل شيء. أحس بغيظ شديد وهو يراه على طبيعته وكأنه في بيته. وهي كما هي انطفأت ولزمت الصمت. دخل والدها بصلعته العريضة فتمنى أن يفسر له ما يرى. تداخلت الرأس الصلعاء العريضة مع رأس الرجل ذات الشعر الأسود الغزير ثم ضحكا وانسحبا إلى الداخل. ضغط الصمت.. أراد أن يتحرك نحوها فلزمت طرف الأريكة ظل ينتظر نظرة خاصة. لم ير المشبك على الصدر. انفردت الستارة فلاحت المناقير حادة وبدا له الأمر غريبا وأن لا يستعصي على التفسير.

كانت البنت الحلوة حميلته وتعريشة حبه. ما بالها تداخلت وأخرست لسانها. كان وهو يمضي إليها يرقص القلب فرحا ويضج بالحياة. وتنظر إليه في وله ينهل كالقطر وتتساءل:

– من مثلنا في الحب؟ ويضيع – وهو يلمس بأصابعه الوجه المخملي– في رقرقة موج العين الأبيض ويقسم لها أنه ملك كنوز الدنيا، وحصل على قلب أخضر نادر الوجود.

– ليس مثلنا أحد.

ويضحكان. ويحدق فيها، ويمد أصابعه تتلمس الشفتين فتضغطهما.

– عام واحد، أرحل فيه وأعود.. بعدها سنحقق ما نحلم به.

والآن تكاد النظرة الخرساء تقتله. إنه يستجدي منها نظرة واحدة. فمن الظلم أن تبخل عليه بنظرة خاصة بعد مضي عام بأكمله. لم تعد العين تستريح لمرآه ولم تعد الرموش تسترخي على لمسة الكف، وترنيمة الصوت. ترى متى سمع هذه العبارة.. أضعك في عيني وأحميك برمشي.. لم يسمعها ولكنه قرأها في رسالتها الثانية له.

وانتفض، هب منتفضا ففزعت ووجد الرجل منتصبا أمامه.. انسحبت إلى الداخل مهرولة.. عاد الدماغ من سفرة الحلم، واستيقظ القلب من خدر طويل. وبدا كالممسوس فانقضت يداه على الرجل، جمع صدر الثوب كله في قبضة يده، فاحتقن الوجه وتكورت عيناه جاحظتين كعيني ضفدعة.. طارده الخوف ورزحت الغربة على صدره فارتجف بشدة.. فهو لم ينس الضفدعة حين لبدت في الشق وظلت تتوارى شيئا

فشيئا بين فكي الثعبان. وصرخ صرخة عاتية. احتضنه الصديق وخلصه من رعبه ثم أفهمه فيما بعد طبيعة المكان. وبدأ يدور على الشقوق يطمسها بالأسمنت، ويضع «الكيزان» المملوءة بالمياه تحت قوائم الأسرة خوفا من العقارب.

لم ينس ما كان يقوله في لحظة الهلع: "كل شيء يهون من أجل البنت الحلوة".

وكان يرتعش.. وظل يرتعش والأصابع تنقبض في موات:

"من أنت؟"..

خلص الرجل نفسه من قبضته، أدار رأسه فلم يرها، تساءل في ألم:

– من أنت؟..

في هوادة وسكون كالمغشي عليه آخذه الرجل من يده وجلسا. كان يجلس على الأريكة وهو يكاد يتداخل.. عاشق العين البحيرة ينكفيء على نفسه ويصوب نظره إلى الأرض.

ينتصب الرجل أمامه، ويقول في حدة:

– ألا ترى أن الأمر منته!

ويأخذه حسه إلى عالم سحري زاخر بالألوان، الأبيض والأخضر والأزرق والأصفر. تتداخل الألوان أمام عينيه. فبشرة البنت الحلوة سمراء واللون الأبيض يأكل سمرتها.

قال الرجل فجأة:

– ولكن الأخضر المشجر يليق بها. حدق فيه مرتابا، ثم قال هازئا ومهموما:
– ولكنني أميل إلى الأبيض.

ابتسم الرجل هازئا هو الآخر – فأطال عنقه إليه – رأى ملامح الشفقة تنداح على وجهه، فتساءل:

– كيف يحدث ما يراه الآن وكأنه كابوس أو مشهد رآه في حلم موصول بالخوف والفزع! وتذكر وهو يجهز لها كل شيء قبل أن يعود، فهاله كيف كانت اليد تمتد فتختطف القماش وتحتضن البلوزة والجونلة والبنطلون والفستان الكامل.. كان يختار دائما اللون الأبيض بتمامه أو بدرجاته في فراغات المساحة. فالأبيض سيد الألوان، ملكها المتوج، قمة الجبال وتألق الوهج، وشعاع القمر وخيط النجوم. وبياض عينيها الواسعتين، ويأخذه الخجل وهو يلملم ملابسها الداخلية.. ود لو جمع كل شيء.. فالبنت الحلوة تنتظر.. وهو ينتظر لا يزال يتنظر.. فهو لم يحصل على نظرة خاصة ولم يعرف ما يحدث.

عادت البنت منكسرة، تتقدم في حياء كأنما تود أن تعود، رآها لأول مرة تضع على رأسها شالا أسود اللون فتذكر نساء البلد التي عمل بها. لاح الوجه هامدا وخلا من دفء اللقاء وتكورت أصابعها ولم تنفرد. لم يمد يده إليها واكتفى بالرؤية والمتابعة.

كان جسمها يخب في فستان طويل. لم يتذكر إن كان رآها على هيئتها أم أنها غيرت ملابسها، لكن الوجه لا يزال واشيا بألم ومعاناة. وضعت رأسها على يدها، وكوعها على فخذها، وعينها فوق وجهه. هذه

المرة تنظر إليه ولكن عينيها تدوران وتقفان على حافة إطار الصورة. كان المشبك زاهيا. رفعت يدها فجأة ولمست صدرها. وكان الصدر خاليا من المشبك.. أحس برجفة قلبها حين اختلجت العين. لا يمكن أن تنسى ارتعاشتها الفرحة وهو يضع بنفسه المشبك على الصدر. كانت حلاوة الدنيا في لمسات أصابعه ولاحت في العين البحرية زوراق الغد الجميل. ولم يخف انطباق الجفن شعورا بالمحبة.

وتمتمت الشفة المراوغة بكلمة «أحبك». في تلك الليلة أخذها إلى شاطئ النيل، شاركهما النيل فرحتهما. حنا الموج عليهما وطوقهما النسيم الليلي بقلادة من السعادة. وصحا الألق في العيون مبهرا.

أحاط كفها الرقيق وقال:

– أحبك. وهمست فطيَّر النسيم صوتها:

– كأنني في حلم.

– ابتسم فابتسمت فقال:

– أود لو نسرع الليلة. وتمتمت حياءً:

– إلى أين.

حدق في العين وضغط على جلد الكف الرقيق:

– إلى بيت يضمنا. ولكن أين هو؟

تنخفض العين وتسدل الأهداب الطويلة ظلالها ثم تقبض بيديها كلتيهما على كفه وتقول:

- الحب فوق كل شيء.

الحب فوق كل شيء.. كان المفتتح في الرسالة الأولى، وفي الرسالة الثانية جاءت العبارة تحت هامش ملحوظة مهمة، وفي الثالثة والأخيرة بحث عنها فلم يجدها.. كان يدرك أن الشقة الصغيرة تحل المشكلة، وأن عاما في الغربة كفيل بتخفيف الأعباء، وأن الحب فوق كل شيء وأن المال يحرسه ليبقى.. ولكنها الآن أمامه كالعود قارب على الجفاف، وأصابعها تضغط على الجبهة وتمر في خفة على الصدر وتمرق عيناها إلى الستارة، كان الرجل خلفها.. أطال رأسه ونظر إليها مستجديا وتمتم:

- اشتقت إليك.. كان عاما قاسيا عليا.

- ....

- نستطيع الليلة أن نمضي.. وأن يضمنا بيت..

- ....

- لن نخاف على حبنا بعد اليوم.

وتنهض البنت فجأة. تتجه إلى الصورة وتضع يدها على المشبك. تحس بضيق في التنفس تفك صديرية الفستان.. تختنق.. تصرخ. وتنفرج الستارة. يهرول الرجل ذو الثوب الأبيض ويكاد ينكفيء الأب الأصلع في حين فردت الأم ذراعيها تحتضن البنت.. صب الجميع نظراتهم عليه.. أخذوا البنت ودخلوا. لاحت الستارة بيضاء كالعهن واختفت الأوراق الخضراء والرؤوس وبقيت المناقير.. انسل كل شيء وبقى وحيدا.

أحس أنه دخل نفقا معتما، تصكه الأصوات وتخنقه الهوام حتى كاد الظلام أن يغتاله.. الأصابع السوداء تضغط في شدة حول العنق، والظلال المعتمة تلفه كالطفل في قماطه المشدود.

برقت العين في حلكة الظلام فلاح له الوجه غاضبا وبـــدا الثـــوب الأبيض شديد السواد.

أفاق مذعورا على جذبة شديدة فوجده أمامـــه مســـتترا ودخـــان «البايب» يتصاعد هاربا من أتون النار. قاده إلى الأريكة وأقعده في غـــل. لبد في نفسه على حين راح الرجل يحدق فيه. أشار إليه أن ينظر إلى الصورة جيدا. كان إطار الصورة ذهبيا، وشعر البنت منســـدل علـــى الكتـــف، والوردة الحمراء تدفيء الصدر، وفص الماس يضوي في الإصبع المســـتكن على الفخذ المزموم.. داهمه الأمر فظل محدقا، كيف لم يلحظ الأمر. تـــرى هل غطى هواها على عينه فلم ير إلا ما يحب!!

كيف لم يلحظ الرجل ذو الثوب الأبيض وهو يقف بجانبها واضـــعا يده على الكتف؟.. كانت دوائر الدخان تخنقه.. انتزع بصره وصـــوبه إلى الرجل وقال في هزيمة ممرورة:

– لقد قتلتني.

ظل يدخن، وهو ينظر إليه، والمبسم لا يفارق فمه.

– وقتلتها أيضا.. أنت وأبوها وأمها.. كلكم قتلة.

رد عليه باستخفاف بارد:

– لقد رأيت بنفسك.

وينهض متجها إلى الصورة.. كاد يمهد يده لينتزعها من الإطار ويمضي بها، لولا هذه النظرة المنبعثة منها توحي بالهزيمة.

– ليست هي التي عرفت.. لقد حولتموها إلى مسخ.. في غيبة عام واحد حدث، ماذا يمكن أن يحدث لو طالت الغربة أعواما.

– لقد رأيت بنفسك.

اجتاحه انفعال شديد وظل يردد «كان يجب أن أعرف». قبل أن آتي «كان يجب أن أعرف».. ولكنها لم تتكلم.. فات أوان الكلام.. دهم الفعل القول.. ليتها قالت شيئا.. لم تقل له كلمة واحدة.. التزمت الصمت وأصابها الخرس.. عرفها مغرمة بالحديث تستولد قدرا لا ينقطع من الكلام.. تصدح بالحديث كما تصدح العصافير. حين رأته يقفز هربا من محاولتها الإمساك به كانت تقفز حول القفص. وظلت تلف حتى أوقفها. مدت يدها ثانية.. تسلل الإصبع في نعومة وظلت تنتظر منقاره الصغير المدبب.. كانت تتخدر وهو ينقر اللحم في خلسة وخفة.. وتهمس في وداعة صمت يوحي بالفرح.

– لو كنا عصفورين.

ويحيطها بذراعيه.. ويناجيها بعينيه.. يصلها السؤال ملفوفا بدفء القلب.. تلف حول نفسها، وحول القفص، لا تبالي بأحد. تحدثت عما كان يريد أن يسأل:

– كنا نقفز من شجرة إلى شجرة، نحط حيثما نحب، يسترنا ورق الشجر، ويروينا قطر الندى.

ويضحك زاعقا فرفرف العصفور مبتعدا

– أي غصن يتحملنا.

وتبتسم البنت الحلوة، ويتمايل جذعها كنحلة مترعة يطـــن منـــها صوت راعش بالحب:

– من يحب يخف ويصبح كالريشة.

– وكيف أمسك به إذا طرت؟

– وكيف تطير الريشة؟

– إذا أخذها الهواء العاصف.

تمد إصبعها فتلامس الشفة:

– لن يقدر عليَّ.

ويعلو صوتها، ويرتج المكان من شدة الصوت ويرفـــرف العصـــفور متعجبا وينظر إليها في خلسة وهي تفرد ذراعيها بقوة الصوت.

– أنا أحب.. أنا أحب.

خاف عليها وخشي على نفسه من الحسد.. كل هذا الحـــب مـــرة واحدة – الآن يطمئن – لقد ملك كنوز الدنيا حـــين امتلـــك القلـــب

الأخضر. أحس بالراحة فالبنت لن تبيعه بأموال الدنيا كلها. هي تعلم ظروفه – تحبه بظروفه. لكنها لم تكف عن الحلم الصعب.

– لو نعثر على شقة صغيرة.. شقة صغيرة يا رب.

وهو بلهفة الحب يسعى إلى البعيد لعله يحقق الحلم الصعب. يجهز الأوراق الخاصة ويندفع إلى الأرض العراء برمالها الصفراء القاسية وجبالها الموحشة. وحمل معه القلب الأخضر. نشر الوجه فوق كل الوجوه.. وعاد وفي قلبه أمل يترعرع.

ولكنه الآن يتسرب كالهباء.. وشعر بألم شديد ونظر إلى الرجل مهروس القلب. كز الرجل على مبسم «البايب»، وقال:

– لقد رأيت بنفسك.

الرجل ذو الثوب الأبيض يرتدي حلة سمراء أنيقة، وهي بجانبه تأكل وجهها ضحكة مترعة.. تعددت الصور. ها هي تمد يدها إليه بكأس من الشراب هي نفسها من عام كامل قدمت له نفس الكأس. كيف واتاها قلبها أن تفعل ذلك؟.. لقد ناولته الكأس في خفقة حب نادرة.. هل كررتها مرة ثانية!! ترتشف البنت رشفة خفيفة عبر حافة الكأس.

كانت البسمة واضحة. كيف لم يلحظ هذا؟. كانت آلة التصوير تضوي بالأنوار. والكأس في يدها يعكس الضوء في إبهار، وهي تدور كالمخدرة تريق الفرح حولها.. كيف لها أن تقدم الكأس للرجل ذي الثوب الأبيض.. «إنه كأسي أنا، أنا الأول».. وينهض كمجنون عيناه تلتمعان ويداه ترتعشان.. يتجه إلى الجدار يمد يده وينتزع الكأس ويصرخ:

– هذا الكأس كأسي.

مسكه في يده وأراق الشراب. وظل يقبض عليه حتى انغرست الرءوس الحادة في اللحم. تعكر الأبيض بالأحمر.. وساد الأحمر كل شيء.. الثياب والوجوه والسجاد والجدران والعيون.. وصاح في حدة قبل أن يتهاوى.. قال: إن الأبيض سيد الألوان.

تداعيات حزينة

(١)

لم تمهله، ألقت في وجهه بالخبر وانسحبت إلى المطبخ. دار حول نفسه دورتين ثم ألقى بالحقيبة ودخل. ألفاها راقدة على سريرها الصغير. أحست به فابتسمت، حملت بسمتها إليه رعشة داخلية فجلس بجانبها، وضع يـــده على جبهتها، فأغلقت عينيها وبانت أهدابها طويلة، انحنى وقبلها. مـــدت يدها وتعلقت به.. لمح احمرارا في العين، واحتقانا في الأنـــف. تحسســـت أصابعه رقبتها وتوقفت. حدس أنها اللوز.. أو أن نزلة البرد شديدة.. أخرج الشيكولاتة ووضعها في يدها. وكانت أصابعها رقيقة رهيفة تكاد تنقصف وهي تضغط عليها. أحكم حولها الغطاء.. لمح عروستها مرمية بجانبها ابتسم وهو يميل عليها:

– كنت ملهوفة عليها.

انفرجت شفتاها واهنتين:

– ولكنني كبرت.

ضحك وفرحة طاغية كست وجهه كله.. هي فرحتـــه. وشـــجرته، وهي الأمل يملأ حياته ويغطي على الفراغ كله، ويـــزرع فـــوق جـــدران الصمت نباتات خضراء.. أدار رأسه فزاحمته صورة الزفاف فنهض مستفزا، يذكر أنه لم ينظر إلى الصورة منذ زمن طويل.

أوجعته البسمة والرقة، واليد المضمومة، وباقة الورد بين الأصـــابع. وأذهلته النظرة المنطفئة التي لم يلحظها من قبل. وأدهشه الشعر الأســـود المنساب على الكتفين كجدائل الصفصاف، فتعجب كيف يتجمد مثل هذا الشعر ويصير بلون التراب؟

أطل في المرآة فجابهته الشعيرات البيضاء، زم شفتيه، ولمس جبهتـــه. أدرك أن الخيوط تفور وتمتد، وأن الزمن يهبط بثقل واضح.. وأنه قـــد لا يجود بحياة جديدة مرة أخرى.. وعاد إليها وهو يتمتم وعيناها لا تفارقانه:

– سبع سنوات.

أسرعت في وهن وقالت:

– عمري!!

ربت على جبينها، ومسح شعرها. كان شعرها الأصـــفر الطويـــل مدفوسا تحت الفراش فمسك خصلة صغيرة وتحسسها. كانت تبدو طريـــة بين أصابعها. حركت فيه حبا محزونا وشوقا غائبا. أدرك الآن أنهـــا حبـــه وشوقه. منذ حملت أمها فيها وشوقه إليها يزداد. كانت الأم تكره أن تجيء البنت.. تكره أن تجيء بأى شيء.. كانت صامتة حزينة، وكان صمتها يملأ البيت ويقتله.. وظل هو حائرا فيما يرى.. ويلمس.. وأد القلق والتـــوتر والخوف والشك.. وانتظر.. حتى جاءت البنت فصارت حبه وشوقه.. مال عليها ووضع وجهها كله بين يديه.. شرب عينيهـــا وأنفهـــا، وذقنـــها، وشفتيها.. وقلبها وضحك.. وبدت الضحكة باهرة كفلقة البدر:

– ست سنوات!! أصبحت عروسة.

فضت غلاف الشيكولاتة ووضعتها على فمها.. بللتها، ولحستها، ثم سحبتها أسنانها.. وتوقفت.. نظرت إليه وقالت:

– تأخذ يا بابا.

تناولها من يدها ومال عليها، أعاد وضعها بين الأسنان فضحكت وتمنعت:

– عودتني أن تأخذ منها حتة.

– ليس الآن.

– ولكنك عودتني. قطع بين أسنانه قطعة صغيرة ثم أعطاها لها. بقيت القطعة في فمه ساكنة، وذابت في بطء، وظلت القطعة بين أصابعها حتى ساحت وعلقت بالأصابع. مسح أصابعها ونهض. بحث عن ليمونة فلم يجد. أصابه هم مباغت فما من شيء بحث عنه ووجده.

(٢)

لم تمهله حتى يستريح. كانت عصبية، قلقة،، متسخة الثياب والوجه، ورائحة المطبخ تعلو على كل شيء، تلاشت رائحتها وسط دخان المطبخ «وهباب» الموقد. لم يفته الضعف الطارئ بالأكل، ولم ينس قائمة الطعام، ولا المصاريف الشهرية، ولا الولع بكل شيء تراه عند الآخرين.. ويفتقده بيتهم الصغير.

كانت يوما تجيد التطريز، ترسم الأشكال الجميلة في إطار من البهجة والفرح.. وكانت تهتم بحواف الأشياء.. ولاح ولعها يتبدى وهي تحدد

الفراغات في جسم الأوراق وكأس الزهور.. وتميل الرأس إلى الصدر في تأمل حذر، والعين تحدق في لمعة مخيفة، والأصابع تنضم في حركة دءوب كدودة تخشى على نفسها حقبة التحول فتسرع في الإفراز. كان يلاحظ الفراغات تتسع، والأشكال الزخرفية تتداخل، حتى بدت الخطوط والخيوط مفتوحة على اتساعها، وبدا الفراغ هائلا.. لم يرق له الأمر.. كان يدخل يده كلها وسط الفراغ عساها تحتج، أو تدرك أن الأمر غير طبيعي. وأن الصمت وراء الفراغ. ولكنها لا تتغير، تظل أصابعها تفرز الخيط، حتى خصلة شعرها المرمية على صدرها لا تهتم بها.. وبدأ شعرها يأخذ لون الحناء الباهت، أطرافه مهوشة. مقصوفة، مغبرة كالتراب.. وكان الفراغ ثقيلا ضاغطا تسمع صوته يتسلل في كل مكان.. يجتاحه شعور قابض بأن أمرا غريبا يطوف حولهما ويعكر صوتهما، أين هذا الصمت من طراوه البداية وليونة القلب. وارتخاء الجفن على رعشة الحياة!.. فضل ألا يسأل حتى لا يفتح بابا تنسل منه الريح عاتية تقصف بما بقي في القلب، والقلب موجوع.. والأمل أن ترفرف في البيت فراشة تقطع بأزيزها ثقل الصمت، وتملأ الفراغ..

(٣)

توجه إلى المطبخ، كانت مشغولة، وكان الزيت يحرق دوائر البطاطس، نفس الرائحة، رائحة الزيت المحترق التي تجابهه وهو يصعد السلالم.. ارتفق الباب وصمت، نظرت إليه ثم استدارت وأمسكت بالسكين، وامتلأ الطبق بقطع الطماطم، ذكرته باحتقان ابنته وحمرة شفتيها، فنطق في غضب:

– ألم أنبه أن البيت لا يخلو من الليمون.

التفتت إليه ولم تنطق، صوبت بصرها إلى الموقد، ومدت يدها وقلبت البطاطس ولم تنطق. وكانت القطع تنهي في الزيت الساخن طراوتها، وبان الاحمرار في الطرف والتيبس في القلب، فأدرك أن ثمة احتراقها أصابهما.. وأن القلب ليس موجوعا فقط بل ومتيبسا أيضا.. خبت النيران وبقي البخار صاعدا يحمل رائحة الاحتراق ويحملها ليملأ البيت، ويترلق إلى السلالم يستقبله ككل يوم.

– منذ متى.

– أمس.

– ولم تخبريني إلى الآن.

كبت عليه نظرة واسعة وثابتة، ثم شدت نفسها ووقفت على أطراف أصابعها. كان صدرها نافرا، ووجهها متسخا، وبان في رقبتها اكتناز مشدود، وبدت ساقاها مبرومتين، تذكر أنه لم يقربها من مدة، وأن الرغبة لا تواتيه وأنها هي أيضا لا تساعده.. وضعت الطبق وبدأت تغرف.

– أتأكل والبنت مريضة!

توقفت، وصمتت، تقلصت أصابعه، ولم تنظر إليه، أدخل أصابعه في فتحة البنطلون وقال في غيظ لم تفتها حدته:

–كان الليمون يسعفها.

– ولكنها هذه المرة ضعيفة.. واللوز متضخمة.

تحسس لوزه، وتذكر أن العائلة كلها أصيبت بها.. وطافت على ذهنه صورته وهو راقد على السرير وخدر البنج يضغط على أعصابه كلها.. وهي بجانبه.. جاءت تزوره.. ولم تنطق بكلمة، كان الآخرون يبدون الاهتمام، وهي لا تنطق، ولا تنهض عن مجلسها، حتى استفزته فطلب منها أن تمضي.. نهضت من مجلسها ومضت دون أن تنطق.. وأخذته رجفة مباغتة:

– ألا يفيدها الليمون؟

– أليس عندك غير الليمون؟

– ولكنه مفيد في البرد.. رمت بالملعقة على حافة الطاولة، فسقطت وأحدثت دويا.

– البنت يجب أن تذهب إلى الطبيب.

مد يده وأخذ قطعة من البطاطس، جرشها وتناول ثانية. مسكت الملعقة وبدأت تغرف، جذبته حركة الملعقة فتنبه لدورة الحركة، وتابعها وهي تغوص في الإناء وتتزلق في الطبق وتتساقط قطرات على الأرض، وفوق الموقد.. أخذ قطعة أخرى وأبقاها بين أصبعيه.

– ولكنها نزلة برد. توقفت حركتها ورمقته في غل، فأسرع وجرش بأسنانه القطعة:

– مما تخشى! اهتز ومسح أصبعه في ملابسه، لم تفتها الحركة فقلصت شفتيها، ولم تفته الحركة فحدق في وجهها.

– ألا يفيدها المضاد!

– الطبيب.

وكتم انفعاله. أحس أنه لو زاد كلمة لانفجر الموقر، وصدعته بنكدها. وانسحب وهو مشغول. كيف يدبر الأمر لو أشار الطبيب بإجراء العملية!. ولكنها البنت الشجرة، والبسمة، والأمل الباقى له.. والقلب الموجوع لا يعجز عن تدبير الأمر.

(٤)

كاد يقترب منها في لهفة، لولا أنها أزاحته. كانت عيناها تنضجان بخوف شديد، وكانت عيناه يلعب فيهما فرح مفاجئ. وضعت يدها على بطنها، فتصور الحلم حقيقة.. لاصقها ومسك يديها الاثنتين. أطبقت عينيها وأغفت في إعياء. كانت الرعشة المكتومة تسيطر على وجهها الأسمر الطفولي وتجتاحه. وكان هو يحلم بميلاد جديد، قد تتجدد معه الحياة، ولكنها لم تبد تلهفا، كان البرود يكسو ملامحها المرتعشة، كأنما داخلها شيء منفصل عنها. وكانت اللامبالاة رغم الألم تقتل في داخله حسا يتلظى بالدفء.. أدرك للحظة أنها قد ترفض الجديد المزاحم فأصابه هول.. كان يمني النفس بأن إعادة التجربة قد لا تحمل أملا أفضل، فركز أمله في البشارة التي توحي بقطر كقطر الندى فوق كئوس الورود. ومن يدرى فقد يزداد حتى يغتسلا به.. ولم يصدق أن امرأة ترفض الخصوبة والامتداد، أول الأمر على أنه دلال، رغم أنه لم ير منها إلا الصمت والخرس. أسندت

جذعها بيديها ورفعت رأسها وصوبت نظرتها إليه، وقالت في حقد لاحت منها شراسة لم يطقها:

- لا أريده.

- أعرف.. ولكن لم؟

- جاء سريعا والرضى بالواقع ظلم.

- أتخشين على نفسك منه؟

- وعليك أيضا.

وكومت نفسها، وخرج الصوت منها، مبحوحا، مجروحا، مدمما:

- أخشى أن نعيش حياتنا مضطرين.

كان الصوت نصلا غاص في القلب وشطره.

منذا الذي يجبر الإنسان أن يعيش مضطرا؟ هل جاءنا الخواء فجأة، وهبط علينا ناسجا خيطه المترع بلزوجة الصمت والبعد والفراغ!! أم كان نبتة مستورة طمرها الوهج الأول في ربيع الأيام الأولى!! أم أننا أسرعنا في اللقاء، ولهثنا في الزواج، وذابت منا حرارة الدفء والوصال.. وحل الصمت جدارا صلدا تزحف عليه الرغبات الموءودة.

وبدا حائرا وقلقا، لم يتحدث إليها، انسحب يداري همه وقلقه وتعاسته.. كان شيء ما يدرج معهما في الخطو، واللقاء لم يكن قويا، لكنه كان موجودا، كان يسمعان دبيبه، أكان ضعيفا فلم يقو على النماء؟! أم

تحول إلى حركات الإبرة تنسج الخيوط والفراغ؟! أم لاذ بالمطبخ يكتـــوي برائحة الزيت المحترق؟!

وظل الفراغ قائما، حتى إذا جاءت البنت علـــى مضـــض، تزايـــد الفراغ، وتلفع الصمت بالشراسة.. ولكن قلبه هو.. اتسع، واتسع، حـــتى احتوى البنت، ومن لحظتها، أصبحت شجرته، وظله، وتعريشة الحـــب في حياته.. وظلت هي.. كما هي.. تضيع ساعات عمرهـــا بـــين المطـــبخ.. والصمت.

بحث عن الأسبرين، وأحضر كوب الماء، مسك الملعقة وأذاب الحبة. ودخل، رأته ابنته فأسرعت تقول:

– بابا.. أنت قلت أنني كبرت. جلس ووضع الكـــوب علـــى الطاولـــة الصغيرة:

– نعم يا حبيبتي.. كبرت، وستدخلين المدرسة، وتصبحين تلميذة شاطرة.

– وستوصلني.

– نعم..

– وتشتري لي حقيبة جميلة.

– وسأشتري لك حقيبة بأربعة جيوب وسوستة.

– ولونها بني..

– سيكون أخضر..

– ولكن أحب البني..

– وأنا أحب الأخضر.. مدت يدها الصغيرة، وفردت أصـــابعها، أدارت رأسها كلها ناحيته، بدت جادة في ملامحها، ولكن الضحكة الواهنة كانت مضغوطة بين أسنانها.

– أهو أمر يا بابا.

ضحك زاعقا فارتجت زوجته، ودخلت، أشارت إلى أمها فاقتربت:

– ماما سأدخل المدرسة قعدت أمها بجانبها.

سوَّت فراشها. وربتت عليها.

– وسيشتري لى حقيبة.. ولكنه يريدها خضراء وأريدها بنية.

نظر إليها، ونظر إلى أمها، ولمح من بعيد صورة الزفـــاف، أوجعتـــه البسمة والرقة واليد المضمومة، وباقة الورد بين الأصابع. والنظرة المنطفئة.. و.. وتناول كوب الماء. أمال رأس البنت ووضعه على فمها.. شـــربته في نفور:

–كل ذلك لا يفيد.

– قد تتحسن.

نهضت ونظرت إلى ابنتها، ونظرت إليه.. ولمحت صـــورة الزفـــاف، فزمت شفتيها، وطوحت بيدها، كان في عينيها غضب، وعلـــى شـــفتيها ارتعاشة، وعلى جبهتها تغضن واضح، وبين أصابعها بقايا ليمونة ممصوصة.

– لو تفعل ما يفعلون ما حملت هما.

أحاط ابنته بذراعيه وظل صامتا.. لم يفته تلميحها له بقلة الدخل، ولم ينس إلحاحها عليه بأن يفعل ما يفعله الآخرون.. ولكنه لا يريد أن يسلك الطريق الوعر.. فمن يضمن له – لو حدث له مكروه ولابد سـيحدث – أن تعيش ابنته تحت تعريشة الحب التي حلم بها يوما.. وهو غائب عنها.. لم يرها يوما مثل الأمهات تغزل الخيوط قماشا، وتصنع القماش ثيابا. وتطرز الثياب ورودا.. لم ير الألق.. ولا الحنان.. ولا الدفء ينداح من العين.. لم ير اليد تبسط الكف على البطن في حب.. تـداعب الجـنين.. وتماشـي حركته.. فمن يضمن للبنت تعريشة للحب.. ضغط بذراعيه على البنت.. فهي العالم والجنة والملاذ.. إنها البنت، الشجرة، والبسمة والأمل البـاقي.. والقلب الموجوع لا يعجز عن تدبير الأمر.

التجاعيد

كان الميدان غاصا مرتجفا والأجسام معصورة ومسلوبة، والـــدوري يخرق الأذن، ويرجف القلب، ويرعش العين، والأسفلت التوى وتشـــقق وسحب بطن الأرض وتكور، يصطدم بالأرجل ويوقع بالناس في تـــربص، والقيظ الشديد يرمي على العيون البلادة وعلى النفوس الكآبة.. وأنا أدور بعربتي باحثا عن مكان. الأرصفة موطوءة، ومبقورة، ولا مكـــان لقـــدم. يتدافع الناس أمامي وحولي كمن أصابهم المـــس، لا يبـــالون بحفـــرة، ولا يهتمون بشيء وكأنما يساقون في مدار لا تراه، ولا نهاية له.. وأنـــا أنـــور وأدور، والبنت تلبد بجانبي خائفة مذعورة.. اخترقها الميـــدان فأطبقـــت عينيها، وارتخت رموشها السوداء الطويلة ارتخاء شعرها الناعم الطويـــل.. وأدور بعربتي فوق بقايا الشارع المبقور، وتـــواجهني لافتـــة الممنـــوع.. والعربات متراصة من حولها وخلفها وأمامها.. وأنظر إلى البنت، وينساب إلى داخلي في ألم تقلصات البنت، وتوتر ملامحها.. فوأدت رغبة البحث عن مكان آخر.. ووقفت في الممنوع.. فإن ترى الممنـــوع مباحـــا وبمســـافة عريضة.. يغريك بالاقتداء والوقوع في أسر المخالفة.. ووقفت في الممنوع.

وترتجف أصابع البنت الدقيقة في يدي، ويرتعش باطن كفي، ورأسها تتلفت في كل اتجاه، لاصقتني في دهشة.. وفتحت عينين مدهوشتين، ولاح لي نني عينيها الأخضر الحلو قلقا حائرا، فطوقتها بـــذراعي، وتلصصـــت

عيناها إلى المرئيات المرعوشة المتداخلة. فازداد التصاقها بي، حتى خيل إلي أنها تود أن تدخل في.

ونعبر الطريق، وندور حول الميدان، ونختلط بالأجسام. وتتكدر ملامح البنت، ونعتلي الدرج، وندور معه.. أصبح الميدان أسفل منا.. والبنت تطل عليه من وراء السياج، وتدبدب بقدميها فوقه في غل وكأنما لا تصدق أنها فلتت بخير.

ثمة غربة تجتاح عين البنت، فعالمها صغير، صغير، وما تراه هول وهول.. ويشيع في ملامحها انكسار، فتسلم قدميها إلي. وندلف إلى داخل البناية الشاهقة، ونقف أمام عيادة طبيب الأطفال.

كانت العيادة غاصة وممتلئة، بلمحة خاطفة أدركت ألا مكان لقدم، وداخلني استنكار خفي، فتأكدت من اللافتة، ومن اسم الطبيب، ومن لون الباب، ومن رقم الشقة المجاورة. ومن دلايات النور.. كان الزحام في العيادة غريبا علي، فما تعودت أن نرى عنده كل هؤلاء المرضى وأتباعهم.

وأخرج جنيهين، وأطلب من الممرض أن يحجز دورا.. ويدير الممرض رأسه مستنكرا، ويرفع بصره نحو الحائط المواجه، ويشير بعينه، ويومىء برسه، ويعاود جلسته دون أن ينطلق، فقد كانت عينه تتكلم وتنوب عن لسانه.. كانت قائمة الكشف تحدث في تحد، وكادت الأرقام تفلت من إطارها لتصفعني.. وتمتد يدي بلا وعي وتكمل الجنيهات الخمسة ويبسط الممرض كفه، كانت اليد قذرة والوجه كالحا. وأدور ببصري في المكان.. تواجهني قصيدة منظومة، وموضوعة في إطار مذهب، يتحدث بيت فيها عن

رحمة الطفل ويصفه بالنطاسي البارع.. وكانت عيون الأطفال الذابلة وملامحهم المتعبة تصيب الكبار بهم رازح على الوجه وفي القلب..

وأدرك أن ثمة شيئا راشحا في الداخل يجبر الكبار على الدفع والأطباء على القبض.. عملية صامتة تدمدم بالداخل، ولا تقوى على الرفض. ولكن العيون تفضحها.

والجدران متسخة، والطلاء قديم، والخدوش متقاطعة، والأكلمة مغبرة، والكبار يبحثون عن دورة مياه نظيفة، والأمهات يبحثن عن ماء بارد يبل الحلق في قيظ الحر، والزحام شديد يفقأ العين، ويدهش العقل.. وأحدق في الممرض، هزيل، ضئيل، الوجه مزموم، والعين بليدة، والأذن مقطوعة لا تلبي طلبا.. والأطفال يهمهون، يتوجعون، ورأسه مرفوعة، وعينه على السقف، وأذنه مع الجرس، ويده على القلم.. وجمع الكبار يرمقونه في غل، فالجنيهات تتساقط، والإكراميات تزداد.. وهو كما هو أذن مقطوعة إلا من رنة جرس، أو صوت الطبيب.

في زيارتي السابقة لم يكن الأمر بهذا السوء، كان المرضى قليلين، والأرائك نظيفة والماء متوافرا، والحاجة مقضية.. وكان الممرض شابا صغيرا وثابا، لم يبخل عليه أحد، بالرغم من كثرة مطالبه.. وأحدق في الوجوه، والأيدي التي تروِّح عن نفسها من شدة الحر، ويمتد الوقت، ويتمدد فوق الشفاه والوجوه والعيون.. ويأخذني بعيدا بعيدا.. كنت أتردد مع والدي على طبيب مشهور في الأعصاب، في البدء كان الأمر صعبا، والزحام شديدا، والحجز يحتاج إلى وقت طويل وصبر أطول.. وكانت الممرضة

الحسناء تجلس إلى مكتبها في تطلع وكبرياء.. جميلة يكاد وجهها المشـــرب بحمرة حقيقية يسحب ناظريك غصبا.. إذا سارت اختالت، ونهرع وراءها نستجديها موعدا قريبا.. وهي.. ضحوك مستبشرة يتنامى صوتها همســـا كأنها تحادثك على انفراد «وقتي مشغول..» ونحن نلح. وهـــي تســـتعذب الإلحاح، وتضحك، ثم تهمس لنا جميعا «من أيـــن أجـــد الوقـــت لكـــم جميعا؟!».. ونلح، وتضحك والبسمة تترقرق في وهن عل شفاه المرضـــى، وقلوب الأصحاء المصاحبين تنتفض نبضا.. وكنا ندفع بالجنيه، تلو الجنيه، وكانت تدسه في الجيب، وتضعه في الصدر.. وتبتسم، وتطوف بســـمتها كغلالة من العطر الفواح.. وتبدو السكينة على ملامح المرضى.

وكان الطبيب المشهور لا يتقاضى أجرا كبيرا. إنه يكاد يقارب مـــا تأخذه ممرضته الحسناء.. علق البعض ساخرا.. إنهما يتقاسمـــان.. وحـــين دخلت مع والدي إلى الطبيب، وجدته شيخا وقورا.. ضاحك وهو يؤدي واجبه، ويبتسم وهو يحرك المطرقة على حزم الأعصاب، ويسأل الوالد عن مباشرته مع الوالدة.. ويضحك عاليا حين يخبره الوالـــد بـــأن الكـــريم لا يضام.. ويشع وجهها عبر الباب جمالا لا تقوى عليه قلوب المرضى.. وكان قلب والدي موجوعا، ولم يملك زمامه، فازدادت دقاته، وتركزت عيونه.. والطبيب يبتسم ويوجه كلامه إلي قائلا:

– ألم أقل لك إن قلبه صحيح وأعصابه سليمة، بل هو عفـــي.. طمـــئن الوالدة.

وذهلت حين دفعت نصف جنيه ثمنا للدواء، وأصابني هاجس خفي أن تكون الممرضة الحسناء مصيدة للعجزة، ومرضى الأعصاب، وذوي القلوب الموجوعة.. وكاد ينمحي إحساسي الجميل تجاه الطبيب وممرضته الحسناء، لولا أنني لاحظت على والدي تحسنا.. فحمدت الله على الشفاء، ولكن والدي همس لي في تودد: "ألا يصح أن نستشير الطبيب؟""، وأدفعه بيدي ضاحكا، الطبيب أم الممرضة.. ويضحك والدي، وتضحك والدتي، وكانت ضحكتها رائقة كقطر الندى البارد لف فم الظمآن.. كانت الأيام حلوة، وكان رحيقها مختوما لم يدنس.. و..

وانتبه حين ضغطت البنت على يدي. والممرض ينبهني أن دوري حان. وأخلع نفسي وذاكرتي وأدخل. نهض الطبيب وحياني، ربت على خد البنت فانكمشت وغاصت حياءً.. كان حياؤها خمري اللون، فهان لدي كل شيء.. فحصها وطمأنني. أفهمني أن الأمر ليسير، وأن الحلق سيبرأ، وأن الموضوع في أيدينا، وأن الليمون مفيد، وأن الغرغرة تقتل الميكروب وأن الدواء المكتوب سيفي بالمطلوب، فأراحني وأزاح عن صدري قلقا كان ينشب فيه وارتفق الطبيب مكتبه وأشعل سيجارة، وتحدث في عفوية. وأصابعه تبحث عن القلم:

– أحب أن أدون بعض المعلومات.. أنت تعلم أنها مفيدة في تكوين الصورة العامة للمريض.

مسك القلم وفرد الورقة:

– ليس الداء بذي بال، المهم هو حالة المريض.. الوضع الاجتماعي.. مثلا.

أزاح الكرسي قليلا فلاحت بطنه مكتنزة.

- الأصل في الوضع الاجتماعي أنه يساعد في جودة الأداء..

ضحك حين رآني أحدق فيه مندهشا:

- هذه الأيام لا نعالج المرض العضوي فقط، بل والنفسي أيضا.

قاطعته مسرعا خشية أن يستمر:

- وهل لذلك ضرورة في التهاب الحلق.

كانت ضحكته زاعقة، حتى خيل إلي أن الباب فتح، وأن الممرض البغيض أطل منه.

- بالطبع.. خذ عندك.. التكييف في الصيف، يعادل ضرر المدفئة في الشتاء.. كلاهما سبب قوي لالتهاب الحلق ونزلات البرد.. ولا تنس القدرة على شراء الفواكه، والحمضيات، والمضادات.. و.. واستشارة الطبيب كلما طرأ جديد على الصحة العامة.

وابتسم ابتسامة ضيقة، سحبت شفتيه وزمتهما:

- ألا ترى.. كم هو مهم.. الوضع الاجتماعي.

أصابني خرس مفاجئ، تذكرت الأطفال في الخارج، والألم على وجوه الآباء، وغاظني أن يكون الوضع الاجتماعي لهم عاديا بل ومهينا، وأنه في مرض الصغار، يستوي الغني والفقير فالمرض يغتالهم جميعا، والطبيب يبتسم.. كدت أنهض مهروس القلب لولا أنه فاجأني:

– قلت لي، إنك مدرس.

– نعم.. أنا مدرس.

– إنني أدفع خمسة جنيهات كاملة.. لقاء ساعة واحدة.

واقترب منه، وأتملى وجهه، وأثبت عيني عليه.. ويشيح بوجهه، ويرتفق المقعد:

– أنت مدرس.. ولابد أنك تفهم.

– أفهم.. ولكنني لا أفعله.

وأخرج الطبيب قرص نعناع وأعطاه للبنت، تناولت البنت القرص وعيناها تختلجان، ناولني قرصا آخر، فظل لابدا في تجويف الفم لا يتحرك.

– أنت مخطيء.. وكيف تعيش في هذا الزمان؟

يحملني عبء الجابة الصعبة ويذكرني بزوجتي، وهي تدفعني دفعا إلى فعله.. فالحياة قاسية لا ترحم، ونحن لسنا أقل من الآخرين، وأنك لست أقل من غيرك من المدرسين، فالشقة تحتاج إلى طلاء جديد، والتليفزيون الملون غزا القرى، وموقد البوتاجاز ذو العيون الست، يجتاح البيوت، وموكيت الردهة بهت لونه، وجارتنا تلبس كل يوم فستانا جديدا.. و.. و..

– ولكن الجنيهات الخمسة كثيرة!!

لوَّح الطبيب بيده، فسقطت طفوة السيجارة على أوراقه. مطَّ رأسه ونفخ:

– هي فعلا كثيرة، على درس لا يتجاوز ساعة.

ظهرت أسنانه المفلوجة بيضاء ناصعة، وهو يسحب قهقهته:

– اخصم منها الزمن الضائع في شرب القهوة.. والمرطبات، بل أحيانا بعض السندوتشات.. أنت مدرس وتفهم.

وأدير رأسي إلى البنت، كانت تنظر إلينا في وداعة، وكان قرص النعناع لا يزال في فمها، وأربت على خدها فتبتسم، والبسمة عنقود مترع بحلاوة لا يتذوقها سوى الآباء، كانت تؤرجح ساقيها على الكرسي، وتشب برأسها، وتدفس يديها بين فخذيها، وترمق من حين لآخر سماعة الطبيب تتأرجح فوق بطنه.. كانت تحس بالأمان.. وتغوص البنت في عيني وقلبي، وتلوح لي عيون الصغار، في الخارج.. وزاحمني هم ضاغط، راعش، صامت يتمدد على وجوه الآباء ويزحف إلى الداخل.. كل الداخل.. فقلت منفعلا:

– ولكن الجنيهات الخمسة كثيرة على الكشف.

نهض الطبيب فجأة، سوى هندامه وأرخى سماعته، ظن جبلها ملتويا على يديه، رمق ساعته ومسح بعينيه كتبه ورسومه، فوضعت يدي على كتف البنت وكدت أنهض، لكنه جلس وبدأ يهز رأسه، ثم مال برأسه إلى الأمام وحدق فيّ. امتدت يده إلى النظارة، خلعها ووضعها أمامه، وظل يحدِّق في. آنستني نظرته بالرغم من حج بدأ يشب داخلي، حتى أنني فكرت أن أتأسف له، فالوقت ثمين، والمرضى من الأطفال ينتظرون.. ولكنني أحسست أنه كمن ينتظر حديثا لم ينته، فبادرته في نبرة عتاب:

– ماذا جد يا دكتور.. اليد هي اليد، والسماعة لم تتغير، وورق الروشتة لم يرتفع سعره، والدواء نشتريه نحن.. فماذا جد؟!

كانت ضحكته عالية فضحكت البنت وملت بصدري أرقبه وأنتظر:

– قل هي الخبرة.. نحن في زمن الخبرة. ورمق ساعته خلسة.

وتابع وهو يخفف من ضحكته:

– إننا نبيع الخبرة. وأقبض على ملامحه قبضا.. كررت عبارته في ذهول صامت ثقيل.. وتزاحمني صورة زوجتي من جديد وهي تفقأ الفراغ محذرة بأننا نقف والتيار من حولنا يندفع، ولن يرحمنا أحد، الكل يجري، ونحن جامدون، ولا جدوى للطيبة في زمن السعار..

– الكل يبيع الخبرة!! إننا بهذا يا دكتور نجعل الحياة لا تطاق.. لقد كنت هنا قريبا.. وكانت الأمور معقولة، وفي متناول القدرة.. فماذا جرى؟!

ويقترب الطبيب من مكتبه، ويمد يده، ويبدأ يقلب في الأوراق أمامه.

– منذ متى على التقريب!

– منذ أشهر قليلة. وتوقفت أصابعه عند حافة الورقة العليا.. من جهة اليمين وقرأ الاسم:

– بل منذ ستة أشهر كاملة.

– أهو زمن طويل؟!

كانت حركته عصبية، ولم تفتني نبرة الافتعال في صوته:

– هوه.. في هذه الأشهر انقلبت الدنيا تماما، كان لابد أن تتحـــرك مـــع الحركة، إنك إن وقفت ضدها، أخذتك الدفعة وأسقطتك.

وتعود صورة زوجتي، فتطفو من جديد.. أخذت هذه المرة ملامـــح الطبيب.. وتصورت نفسي أمام باب تفتحه ريح رخية لتأخـــذني عاصـــفة هوجاء في تيار لا يعقل الحركة ولا يضبط الاتجاه.

– أنت تعلم أن أجر الكشف كان جنيهين.. وكنا قانعين.. ولكن .. وقع الصمت غائرا يحفر العيون.. وانتظرت أن يكمل.. وانتظرني أن أعلـــق.. وظل كلانا ينتظر الآخر، تتلاقى العيون وتتواجه، والبنت حائرة بيننا، وكل منا يتوقع أن تنفجر الشفة عن معنى، فإن تحادث طبيبا كل هذا الوقـــت، ومرضاه يعذبهم الانتظار.. ودقائقه محسوبة، ومدفوع ثمنها مقدما.. فلابـــد أن يكون لحركة اللسان قيمة.. وتنبه الطبيب لحركة الباب، ولوجه الممرض يطل ببلادته، بأسرع قائلا:

– لعلك تعلم أن قيمة الكشف عند الطبيب المجاور كانت خمسة جنيهات.
– نعم.. أعلم ذلك.

– ولكنك لا تعلم أن المرضى كانوا يذهبون للأعلى سعرا. – أهو فقـــط السبب وراء الزيادة.

– لا بالتأكيد.. إنما هو مظهر له.

ونهض.. ووضع السماعة حول رقبته، وتدلت فتأرجحت فوق بطنه، وأحكم نظارته فوق وجهه، وأعطى البنت قرصا من النعناع، ومـــد يـــده

وضغط على مفتاح جرس بجانبه، وبسط يده، وانفرجت أصابعه.. ومددت يدي، وصافحته، ولكنه أبقى على يدي وقال:

– لا تنس أننا نعيش عصرا لا يسعفك فيه التأمل أو الانتظار.. وخسارة.. خسارة ألا تستفيد بخبرتك.. فالتيار يندفع وبقوة. وانسحب، والبنت في جناحي وديعة كحمامة، ونفسي يشتجر داخلها حديث ثقيل.. ثقيل، وأنا أسائل نفسي في مرارة.. إلى متى تظل صورة زوجتي تزاحمني دوما.. وهل يأتي يوم أرى فيها ملامحها مرسومة على كل الوجوه.

تراجيع الصدى والصمت

وهو ينسرب إلى الداخل في خفة، واجهه سكون متربص يطل من الأركان ويسيل فوق الفراغ كذرات دقيقة لا تبين، أحس به وهو يداهمه في لزوجة، فارتجف عائدا إلى الباب، وإلى الدرج.. البيت بيته، وهو لم يخطيء.

وقف ساكنا أمام اللوحة ذات الإطار الذهبي.. وتنهد عميقا، حين لمح البريق في العين وهاله توحش يحتوي العين فلام نفسه عند الاختيار، وتساءل لماذا لم يلحظ ذلك من قبل؟. مشى معه الصمت ثقيلا وهو يتخطى الردهة الضيقة إلى البهو وهاجس يراوده ملحا أن شيئا ما خرق ناموس حياته، فقد احتجب الضجيج وتتلاشى ولم يعد الصوت المدوي رجع صدى يصك الأذن ويرجف القلب. أمال رأسه وأرهف السمع، وتوقع أن يأتيه الصخب من مكان ما.. ولكن الصمت يتماوج سكونا مطبقا ويحيط به، ويعتصره.. أتراها قد أخذته معها في سفرها إلى الأهل؟

كان قد عاد لتوه بعد أن رافق امرأته إلى المحطة. لا يذكر أنها سافرت بمفردها من قبل. كانت تحتد في وجهه إن تعلل بانشغاله. وتستنكر أن تسافر امرأة دون صحبة الزوج. وكان وهو يراها منفعلة، يكتم فرحا غامرا يفيض في داخله أما هذه المرة فقد انفردت بالأمر وألحت عليه ونفذته. حاول أن يعترض ولكنها ببريق العين الحاد قتلت محاولته. فنزل على رغبتها مضطرا.

أدار عينه في البهو فأحس به يرشح من المسام.. سائلا محمولا فــوق ذرات ريح خفية ليتزلق على الجلد والقلب والعصب وينــتفض، ويلــوح بذراعيه، ويدور في مكانه، ليطرد بحركته القلقة هذا الذي يسيل ســاكنا وصامتا.

وقف أمام الثلاجة يستمتع بصوت المحرك الذي يشبه نغما نادرا. لقد كان الصوت الوحيد الذي يشعره بوجوده ما، أخرج زجاجة المياه ووضعها على الطاولة. وارتطم الزجاج بالزجاج. وامتد الصوت وعــلا زاعقــا، فأسرع فزعا ليضعها في الثلاجة دون أن يشرب، مسحت عينه أكداسا من الطعام والشراب، ومرت عليه الخاطر أن تكون امرأته قد أزمعــت علــى الغياب، فهمه الأمر وركبه حزن ثقيل.. كيف تتركه مع صــمت ثقيــل كهذا، وهو الذي لم يتعود منها إلا الصخب والدوي الزاعق؟ تذكر وهــي تتلو عليه قائمة النصائح أنها ستمكث أسبوعا. كانت تملأ المكان كلــه في وقفتها.. كانت تسد عليه كل الواجهات، ولم ير إلا واجهتها فقط، كانت عادته التي تربى عليها. وأحس بطمأنينة مباغتة فليس الأســبوع كــثيرا في حساب الأيام.. ووعي صوتها وهي تحادثه في حدث لم يتعوده منها..

– هذا الصنف ليومين. والآخر يؤكل مرة واحدة، أما الثالث فلن تنتهي منه قبل أن أشاركك فيه.. الفاكهة طازجة لم يمر على قطفهــا يومــان.. تستمر أسبوعان وأكثر.. أعرف ولعك بالفاكهة، ولكن لا تسرف فأنت لا تقوى على الشراء.. ستراني بعد أسبوع أعصر لك كأسا من البرتقــال.. وإن كنت لا تتمنى ذلك.. أنتم صنف الرجال لا أمان لكم.. ويضــحك،

يضحك عاليا فيرتد الصدى صاكا مسمعه، فيرهف أذنه.. ما عليك إلا أن تغسل الأطباق.. إياك أن ترسل إلى الشغالة القديمة.. فقد كبرت ولا تصلح لك في غيبتي.. أحكم الغطاء حولك..

ويبتسم ابتسامة صافية ينداح صفاؤها على وجهه كله فهذه المرأة لا تكف عن حصاره أبدا.. حتى في الصيف، والعرق يتر من الجلد تحرص على لفه بالملاءة كطفل صغير.. الدواء من صنف الداء.. وتترقرق بسمته وهو يصيد طيفها.. تنبه إلى الموقد، ولا تنم قبل إغلاق التلفاز.. ولا.. ولا.. ولا.. وانبهم شعوره انبهاما شديدا.

حين أراد أن يخطو إلى الداخل أوقفه احتمالات الصوت المدوي وسط السكون المطبق فخلع حذاءه وظل ممسكا به. فهو لا يقوى على الصمت، أو الصوت.. كيف يواجهه بمفرده؟ أين يضع الحذاء، أيظل يمسك به؟.. عودته امرأته أن يضع الحذاء في صندوقه الخاص.. وصندوق الأحذية بجوار الفراش، والفراش الوثير يقبع خلف باب، والباب يصر صرير ساقيه قديمة. والصرير الآن يقتله. كثيرا ما نبهها إلى علاج مفصلات الأبواب.. ولأنها طوع أمره، فاهتمت بالأمر اهتماما شديدا، أسقطت الزيت على الخشب وظل الحديد كما هو صدئا – وكلما نبهها إلى ذلك ازدادت بقع الزيت في مساحة الخشب، فهي لا تعطي له أبدا أمرا.. وهي امرأة مغرمة بكل صوت عال يحاكي قرع الطبول.. ولأنها عادته، عود سمعه على الرهافة وأجرى بين العين والسمع حركة تبادلية. وظل اللسان – وسط حشد الأصوات المختلطة – لابد في تجويف الفم. ولابد أن يتعامل

وأن يتحدث. وأن يصل صوته إليها أولا قبل الآخرين.. ودرب حنجرته على النطق.. وكان نطقه صراخا.. فليس للهمس مجال في الضجيج. ولكن الصوت الآن يختلف، إنه خيط من حزمة أصواتها. له زعيق يعادل ما تحدثه من صخب يومي. وإذا كان يقدر على الكف عن الفعل، فهو عاجز أمام الصمت الغريب المزاحم ما رآه يوما، أو سمع عنه، وها هو الذي تمناه يوما، يحاول الهرب منه، فكم تمنى أن يعيش ليلا ساكنا، وقمرا وادعا، ووجها مضيئا، ويدا لا تمسك بالمنفضة، وشعرا غجريا متمردا.

وعينين وادعتين لا بريق لهما. فقد هذه البريق وأزعجه.. وها هو الآن حزين، لا السكون أفرحه ولا انطفاء البريق.. وأحس بوحدة قاتلة.. والوحدة ليست غريبة عليه فهو لا يذكر أن حبال الكلام امتدت بينه وبين امرأته إلا قليلا. هو يستطيع أن يعد مفردات اللغة التي تدور بينهما.. ففي الصخب تعلو لغة الإشارة.. وكثيرا ما يفتقدان لفظا مناسبا لحظة نشوة طارئة فيضحى الأمر مضحكا ومربكا.. ويصبحان على إشارة جديدة منذ أن ينفذ شعاع الشمس الدامي، عبر خصاص النافذة، فتهب يقظة ويدها على مفتاح الراديو ليعلو صوته. ويزعج الآخرين. ثم تبدأ الجوقة في صخب عال حتى يأخذها التعب أخذا إلى النوم.. وكثيرا ما تعجب من رقة حديث يسمعه في الخارج.. أو نعومة لفظ ينساب كحرير جدول.. واعتبر ذلك أمراً ملفتا للنظر، ويستحق الاهتمام فهو أشبه بخرق العادة.. وكثيرا ما كان يسائل نفسه لما رأى عاشقين يقتربان حتى يكادان يذوبان التصاقا.. كم يحتاج من الصبر وضبط النفس وتدريب الصوت.. ليحتمل موقفا هامسا كهذا؟!

كان الذهاب فجأة مطرقة هوت على رأسه. فهو لم يتعود فراغا هائلا كهذا الذي يقبض عليه الآن منذ أن أتى بها إلى بيته. ولو كان البديل عن الصخب سكونا طالما حلم به. أراد أن يثنيها عن الحركة الزائدة والصوت الذي يطحن العصب، ويميته، ولكنها كانت تداومه وتصر عليه.. كان يروقها أن ترى نفسها مشغولة دوما، كأنما كانت تخشى أن تتاح لها فرصة سانحة للحديث، أو تقع متلبسة بهمس يشي بالفعل. كان الصخب يملأ وجدانها كله ويفيض.. وكانت الضحكة تجلجل عبر البهو وبين الغرف، وأضحت المنفضة كالعصا التي توذن بهدير الصوت.. حتى إذا جاء آخر الليل ظل صدرها يعلو وصوتها يرتفع وأنفاسها تتلاحق كأنما تريد أن تكمل حركة النهار.. ويظل هو بجانبها سهران يقظا.. يلعن اليوم الذي حرك فيه مشهدها. حنينا إلى البيت، ورغبة مكتومة في أسرة صغيرة وعش دافيء.

وحملته الأيام على جناحها عبر السكون المعطر بالسكينة.. وكلما مضى يوم داخلته الطمأنينة شيئا فشيئا حتى أحس بها تملأ كيانه كله.. واندهش لرقة في صوته تجاوبت مع المجال الذي يتحرك فيه. وحين أصلح الأبواب خيل إليه أنه يعيش في واد سحيق لا يخدش هدوءه مرور سحابة غضبى ولا عواء ذئب أو نباح كلاب مارقة.. هفت نفسه إلى الأغصان والشجر والماء ينساب بين طيات الحفر. والطائر الغريد يصيح في السحر.. وابتسم.. وفرح.. كيف يواتيه النغم، وهو الذي ظن نفسه متيبسا!! أغرته نفسه أن يطير، أن يرفرف، ويخبط بالجناح على شواطئ لم يرها.. فها هي نفسه، تخدعه، وتخف، وتشف، وتكاد تطير به محلقة.. ما باله الآن يترنح منتشيا.. وهو يخطو في الردهة وبين الغرف في خفين من القماش

الإسفنجي!! ونسج الصمت رداءه الساكن الناعم وغفا على وسادته منعما.

اطمأن لخزين الطعام والشراب فمكث في البيت ولم يخرج، وظل لأيام قابعا في بيته دون أن يذهب إلى عمله.. كيف يقوى على الضجيج مرة أخرى وكيف تتلاءم طمأنينة السكينة مع صخب يتقافز مع كل خطوة ويدخل في كل تنفس.. كيف يوقع العذاب بنفسه ويستعيد الصخب الذي صنعته امرأته وأغرقته فيه؟.. جاءه اقتناع كامل بأن ما يحياه الآن يسير وفق رغبته كامنة كانت تراوده على خجل شديد.. رغبة أن يكون هو نفسه، أن يتحرك في مجال من صنع يده.. يذكر – وهو يتحسر الآن فقط – أنه لم يقو على حسابها.. وتصور أن بالزواج سيكتب تاريخه هو، وأنه سينسلخ من تبعيته لأبيه.. فالبيت بيته الآن، وهو رب البيت وصاحبه.. وجوده الآن لا يقارن بوجوده في بيت الأسرة الكبير، حيث يعيش الكل في تيه لا حدود له.. فسلطان الأب لا يعلوه سلطان. ولكن امرأته الخبيثة تداوم على طاعته، لا تؤخر له طلبا ولا تراجع له أمرا، هو السيد، كانت تضحك وهي تبدى له الخضوع وكان يتمدد نشوة وهو يراها خاضعة. لم يرها يوما تحقق ما يهواه.. ولكنها تخضع له، لم يسمع منها غير كلمة «حاضر» ولم ير منها عملا يحقق له رغبة، وجاءه الزمان يتلاعب برغباته كلما حلا له.. وهيأ نفسه، وبدأ يبحث في دماغه عن رغبات كثيرة موءودة، ليخرج بها حية على بساط يده، فقد آن لها أن تفك أسرها وتنطلق.. وظل يبحث في دماغه عن رغبات يمكن أن يحققها في غياب امرأته، .. ودوام البحث، ولم يظفر بشيء، خيل إليه أن رغباته قد تلاشت تماما، أو أنه حققها دون أن

يدري.. وقنع برغبة كبيرة كانت تتأبى عليه وهي التنعم بلحظات صمت مسروقة من صخب امرأته.. وها هو غارق فيه، فكف عن التفكير. قادته قدماه إلى الشرفة في خفة.. وكانت تطل على حقل من البرسيم، وحملت النسائم إلى أنفه رائحة الأرض المختلطة بعطر نوار البرسيم، وعب صمت الكون كله ولم يرتو. وحط أنفسه على أرض وعيدان البرسيم المرشوقة في طينها تتعالى وتقبض على وجدانه.. وتذكر الرجل وأنفه معلق برائحة الأرض.. أن امرأته تغيب أكثر مما حددت، حاول القلق أن يزاحمه فنحاه حتى لا يخدش جمال اللحظة الوديعة. وحتى لا يسحب ذكر امرأته ذكرى صخب لا يزال منتظرا خلف الأذن.

في الصباح الباكر، ارتدى حلته الأنيقة، وخلع خفه الإسفنجي. ونزل يواجه الخارج بجبروت صخبه. وتوجه مباشرة إلى موقف القطار.. فتأخر امرأته – وهو لا ينكر ذلك – قد أقلقه وأودع في قلبه هاجسا يخشى منه. ليكن الذهاب لمجرد الاطمئنان، وحبذا لو عاد بدونها.. ولكن الواجب يقتضي السؤال.. تماوجت حول الأذن دقات الطبول، فكاد يرجع لولا أنه لمح القطار فهرول. كانت المحطة غاصة والزحام شديدا. هاله التكدس الرهيب، ووشى إليه هاجس قلق.. كيف يواجه هذا الحشد الضخم؟.. كيف يقتحم هذا الجدار البشري ويخترقه؟.. على مدار حياته العاقلة.. لا يذكر أنه شارك في لمة.. أو مشى في مظاهرة، أو استجاب لدعوة أحد، أو نجح في خوض زحام ما.. بإرادته.. كان يومه ينقضي بين رئيس يتلقفه صباحا ضاحكا.. وامرأة تسجنه بعد عودته محصورا بين الصخب العابث والصخب الراعب. كيف له وهو الذي يسير بجانب الحائط أن يواجه

حركة الأجسام في مسارها إلى القطار وفتحاته؟.. وكأنما لم يركبه يومـــا!!
حاول ونجح، وضع قدمه على أول درجة، ها هو يضع قدمه على الدرجة الأولى.. إذا كان مجرد وضع القدم كومه على الرصيف فما باله لو حاول أن يدخل، أو يجلس مثلا!!.. وظلت عينـــاه تراقـــب حركـــة الأجســـاد وتداخلها والتصاقها.. وهز رأسه في أى.. كيف تقبـــل امـــرأة أن تحشـــر جسدها كلها بين عيون لا ترحم وأعصاب لا تنام؟.. ولم تفته سخرية زميله في العمل كلما تأخرت موظفة.. إنها تعمل من أجل أن تركب القطار!!

وانسحب عائدا وهو يمني نفسه بأن غدا إجازة وأن القطار ســـيواتيه راكبا!.. وأيقظته صيحة الديك، فمنذ أن سافرت امرأته كفت ساعة البهو، والمنبه ذو الدقاق النحاسي عن العمل.

أعد له كوبا من الشاى الساخن، وفضل أن يحتسيه بالشرفة وكـــان باب الشرفة يتباعد عن مقرده في نعاس خدر، كأنما يـــدعوه إلى القـــدوم. وأطلق على مرج البرسيم وغبشة الليل لا تزال تمسك بـــأوراق البرســـيم وزهراته البيضاء.. وقبل أن تكتب الشمس شهادتها، وضع قدمـــه علـــى الدرج متجها إلى المحطة. ولعل في البكور ما ييسر له الأمر، فهو لا يريد أن تهتز صورته عند أهل زوجته.. واجتاحه غضب شديد.. فالزحـــام قـــائم، والمكان ممتليء، والحركة صخابة.. أين يذهب الناس في يـــوم أجـــازتهم، ومدى علمه أن القوم لا يهتمون بأجازة، وهم لا ينهضون من فراشهم إلا قرب الظهر. فلماذا تعاكسه الأيام على غير عادتها؟! هي تعلم أنه لابد لـــه أن يركب القطار إلى امرأته فلقد مضى الأسبوع ولم تأت.. لا مفر.. وحين

أبطأ القطار.. كان لجسده النحيف قدرة اختــراق هائلــة. تعجــب لهــا واندهش.. وضع قدمه اليمنى على الدرج، ومسك قضيب الباب الحديدي بيد من حديد. وهم أن يرفع قدمه الأخرى ليدخل.. فعجز، وبقي جســمه في الخارج مضغوطا بأجساد المزاحمين. كيف تكون صورته أمام أهلها وهو يماطل في الذهاب؟.. واشتدت قبضته، حتى بدا له أن أصابعه تكاد تلــين الحديد وتنغزر فيه.. والقطار يمضي.. وبقية جسده مضغوط، ولا يدرى عنه شيئا. في المحطة التالية هبت حركة الأجساد في موجــة جديــدة فــتحين الفرصة. ونزل. استقر على الطوار لاهثا، موجوع الظهر مضروب الصدر، مخدر الساق.. وحمد لزوجته أنها ليست عاملة. وأنها لا تحشر جســدها إلا مرة واحدة.. ومرق على خاطره أمر بدا له غريبــا. أيكــون ذلــك وراء الصخب الذي تصنعه امرأته؟..

وعاد إلى بيته مهموما. فضل أن يقطع طريق العودة ســائرا علــى قدميه.

وأخذه الخوف هذه المرة. فلم يأت منها خبر أو رســالة، أو مكالمــة هاتفية. وكأنما – هي الأخرى – قد تعاونت مع القطار لإحداث رعــب خفي يتسلل إليه فيحرمه من متعة التنعم بلحظات السكينة التي امتدت معه أياما. أتستكثر عليه هذه اللحظات المسروقة؟، وهو الذي أضاع عمره كله بجانبها يتلذذ عذابا من صخبها وضجيجها ورائحتها؟ أتراها الآن تنتظــره؟ أو شغلها شاغل فرمت فيه بثقلها فأنساها إياه، وهل ثمة شاغل يفوق متعة اختلاط متعة اختلاط الأصوات عندها؟

لقد ظل هذه السنين الطوال عاجزا عن معرفة كيفية اهتدائها الدقيق إلى أعمق النغمات وأرقها وهي تدوس بقدميها المقاعد، وتمسك بيدها آلة الهاون.. وبالأخرى منفضة من السلك الرنان.. لم تفته آهة تصـــدر وهـــي تتابع أداء مطرب، أو إرخاء جفن على ترنيمة حب، أو حزن.. ولا يمكـــن أن تنمحي صورها وهي تضرب بردفيها الغليظين وتفرقع بإصبعيها السبابة على دقات مطربة شعبية.

وقرر أن يعاود المحاولة للمرة الثالثة، وهو حـــتى هـــذه اللحظـــة لا يستطيع أن يدرك ما حدث وتساءل في دهشة: كيف تعامل كل هذا الزمان مع القطار، ثم يعجز عن ركوبه الآن! أتراه كان منوما طوال هذا الزمـــان الماضي!!

كان الوقت الذي ذهب فيه إلى المحطة وقتا ميتا، واستطاع أن يدلف داخل العربة، بل ويجلس مرتاحا، لا يذكر أنه بذل مجهودا يذكر هذه المرة، الفرصة مواتية والمرأة تنتظر، والطريق لا يستغرق ساعتين، جـــاء مقعـــده بجوار امرأة تستند على حافة نافذة مفتوحة، كان كوعها مدببا، ومسودا، وعضلات اليد مشدودة، تحرك رأسها تواءما مع نغمة مفلوتة، أثاره أن تمط جسمها في حركة صعود وهبوط أمال رأسه إليها، زاحمته رغبة في رؤيتها، هذه الساعد الأنثوي لا يكون إلا لرجل، لابد أنها تعمل، وتعمل.. وتصدر قدرا هائلا من الصخب هي الأخرى وحين أمال رأسه كانت قد اعتدلت، وعاد الذراع راقدا على صدرها المكتنز. ثم فتحت حقيبتـــها، وأخرجـــت مرآة، وسوت شعرها، وضغطت شفتيها، ومسكت زجاجة عطر صـــغيرة،

ورشت العطر على الصدر، والعنق، وتحت الإبط، وتحت البطن، واعتدلت. وصوبت عينيها إلى بعيد.

اكتأبت ملامحه. وبدا الضيق واضحا عليه.. فانسل هاربا ونزل، أمسكته أنفاسه المتلاحقة وشدته، ونز منه عرق غزير. ولعن الرائحة وصاحبتها والقطار وسائه. كيف لامرأة أن تتعطر برائحة كتلك؟.. يعلم أن الرائحة الطيبة ترطب الأنف فالقلب.. فما بال هذه الرائحة تقبض النفس وتلوي الصدر!!.. كثيرا ما نبه امرأته إلى نوع العطر.. ولكنهن في هذا الزمان ما عدن يفرقن بين عطر القلوب، وعطر العرق الغزير.. امرأته كانت مغرمة بالرائحة، بانسكاب العطر، بلون فريد من العطر يدير الرأس ويبعث على الغثيان!.. نبهها كثيرا إلى تغييره بل اشترى لها عطرا محببا له.. كي تستخدمه.. ولأنها تطيعه، ولا تعصى له أمرا، كانت تفرغه في الخلاء ليظل عطرها يجوب الفراغ ويملأ البيت كله. كان يحمله معه دوما دون أن يدري، فمن تكرار العطر وكثرته فقد حاسة تمييزه.. زميلاته حين كن يشاهدنه صباحا، يضحكن ويملن برءوسهن، ويغمزن بعيونهن.. وكثيرا ما نبهه رئيسه إلى تغيير نوع الرائحة فهي لا تليق بمثله، ولا تتلاءم مع جو العمل.. ويغمز بعينه إلى النسوة.. ويظل هو حائرا مندهشا من سلوك زميلاته، ورئيسه فالرائحة خالية تماما من أية أنوثة بل هي مقززة، يعلم أنها مقززة، وإن كن لا تبدين ذلك. تبدلت البسمة إلى امتعاض خفي!! ماذا كانت تبتغي امرأته وهي تسكب العطر على ملابسه!.. وهي تتسحب – بعد أن نهرها في قسوة – آخر الليل لترش العطر بعد أن تتأكد أنه نائم!!

ومشت الرائحة معه، دخلت معه، وخرجت معه وعلقت بكل شيء، ولأنه تعودها افتقد حاسة التمييز.. ولكنه هذه المرة لا يقدر على نسيانها.. كلما تذكرها شعر بغثيان يقبض على حلقه.

وهب ضجرا، واقتحم غرفة النوم.. كانت زجاجات العطر ساكنة كأنما تتداخل.. وفي هدوء ساكن أخذها وأفرغها كلها في حوض المياه.. في ذلك المساء بعد أن فرغ من العطر، شعر بأن ثمة ريحا تنساب في البيت تحمل نوار البرسيم، ورائحة الحقل – حث خطأه إلى الشرفة – رأى نتفا من السحب البيضاء تتجمع. وأحس ببرودة خفيفة تكاد تلسع الجلد.. جاءه الخريف مزينا بروائح الحقول الناشفة. أوصد الباب. ولبس «روبا» ثقيلا.. كم طالت لياليه في أيام الخريف!! كان يجلس في البهو الواسع على أريكته المفضلة، وتحت النافذة مباشرة متنعما، في الهزيع الأخير من الليل، هبات ريح تحمل نسائم ليل يقترب فجره. مستمتعا بلحظة نادرة لا تقطعها امرأته.. نفس المكان، وذات الأريكة، والليل يرخي من حوله أستار الصمت، وهو مبهور بسكون الخريف وبرودته.. الساعة لا تدق.. معطلة، والثلاجة بيضاء مصمتة، مخلوع سلكها بالليل وموصول بالنهار تكاد من صمتها أن ترتكن على جدار كالح.. بهتت ألوانه، كأنما كان يسرق انشغاله ليتساقط، واتخذت المقاعد ذات الرداء القطيفي الرمادي هيئة جذوع نخل متراصة. ولاح الصوان وبداخله تطل المعادن البيضاء عبر زجاج مغبر، كمرآة أدارت وجهها في عتمة مقبضة.. وانكسار الظلال على الصوان طمس واجهته وأغطش لونه.. لم يبق واضحا أمامه سوى شاشة التلفاز،

الأشكال تتبدل ولا صوت.. اقتربت الإضاءة من الظلال، وكأنما الظـــل يخنق الضوء والصوت معا.. وبدت في عينه ملامح الأشياء بقعا من الليل.

ظل جالسا في مكانه لا يتحرك، وهو يشاهد الرجل العجـــوز علـــى الشاشة، يمر أمام الباب. وهو يقبض على عصاه الرمادية، وهو يحكم إغلاق صديريته، وهو يرفع رأسه إلى أعلى، وهو يثبت عينيه على نافذة البنايـــة العليا.. العيون منطفئة، والجفون مرتخية.. وكانت هي.. تتساند على جدار النافذة. وتنظر إليه.. والعيون منطفئة والجفون مرتخية، كان كـــل منـــهما ينتظر الآخر.. ظل العجوز يمر أمام الباب وينظر إلى أعلى.. والمرأة تتساند على جدار النافذة وتنظر إلى أسفل.. وهو على أريكتـــه، تحـــت النافـــذة مباشرة، يتابع المشهد بانبهار شديد. وتولاه العجب.. وشرع يتمـــتم: لا الرجل صعد ولا المرأة نزلت، وأخذه النوم عميقا.. عميقا وهو لا يـــزال يردد.. لا الرجل صعد، ولا المرأة نزلت.

انكسار الضوء

(١)

كان كل شيء هادئا.. الطرق ممتدة وواسعة، والجزيرة خضراء مترعة الخضرة. ورجل المرور بقف على يمين الإشارة، ويرفع يده اليسرى في الاتجاه المقابل.. كان الإطار بين يديه لا يزال يرتعش.. والنغم الموسيقي ينساب من فتحات الراديو هادئا مؤثرا.. والعين تهوم في البعيد.. والقلب – وأذنه تتلقى النغم – يرتجف وجدا.

أخرج من صندوق العربة زجاجة عطر.. لاصقت العربة الرصيف.. ثم انثال العطر رذاذا.. أغمض عينيه وغام.. كانت النسمة رخية وأصابعها تمتد في زحمة الهوس المتفجر من العين. ألقت بالزجاجة ومرت في وداعة فرطبت قلبا يحترق، وأسدلت على العين سترا شفيفا لا يخفي حمرة القلب، ولا يمنع سخونة الدم. ود لو يسحبه من الذاكرة ويحييه.. لم تفته عين رجل المرور وهي ترمقه في تفحص.. أغلق باب العربة، سحب المفتاح. دسه في جيبه، نظر إلى العربة، وإلى اللوحة، وإلى زجاجة العطر، وإلى رجل المرور.. ثم رفع رأسه إلى بناية شاهقة .. ومضى متجها إليها.

(٢)

وهو الآن لا يصدق أنه يقف أمام الباب. هذا المكان الذي تراءى له يوما بعيدا ومغرقا في الوهم.. يقف الآن في مواجهته منتظرا لحظة زمنية واحدة تفصل بين خطين دقيقين مبهمين ومتوحدين. لحظة ويتحقق من هذا

الوهج الشفاف الذي يسيطر عليه ويأخذ وقته كله.. ووعيه أيضا.. فمنذ أن رآها وهي تسير ماضية كالسهم، رخية كالنسمة، وضيئة كالنور، فواحة كالوردة، حتى أدرك أن هذا الشيء الذي لا يستطيع أن يضع يده عليه ويلمسه، قد واتاه وأضحى قريبا منه.. والوجه الوضيء اللامع الراشح بجماله يفرش حسن ملامحه ويأكل بنوره ما يقترب منه.. ولكنه يقترب، يظل يقترب.. وها هو الوجه ذو الأنف الدقيق، يقف على جسد فارع، ممتلىء بأنوثة يعجز الثوب عن لمها وسترها. ويقترب. ومن يعشق رؤية الجمال ولا يقترب؟!

في لحظة الاقتراب يتوارى الوجه.. توارى وخلف موجة أثيرية تعبق المكان وتضمخه.. والوردة الحمراء لا تزال مغروسة ترف أوراقها رفة النسيم وتضحك رائحتها فيمشي العطر في المكان.. ويذهل.. لم ير في حياته وردة دسمة اللون، عميقة الرائحة، تتيه في اختيال أثيرى كتلك الوردة.. ويقترب منها، حتى كاد الأنف يلاصق القلب.. قلب الوردة، وفي لحظة انفصال الأنف، لحظة أن امتلأ الأنف وارتوى فابتعد موصولا بخيط دقيق شفيف.. رآه.. رآه للمرة الثانية، رأى الوجه المضيء صغيرا، مصفرا بورق الورد، ومزينا برائحة حمراء تنبعث من شفتين حمراوين حمرة الكريز المقطوف لتوه.. وجاءه الذهول هذه المرة ضاغطا وثقيلا.. ظل صامتا لا يتكلم. جامدا لا يتحرك.. انطبقت ملامحه، وتمشي على الوجه امتعاضا وذهولا، ووقف اللسان في التجويف مرتخيا، وظلت عيناه مرتبطتين بالوجه، وجه المرأة التي فتحت له الباب.. كان مبهوتا.. كيف لم يتأكد من الوجه قبل أن يصعد البناية ويدق على الباب؟!.

ولكن الجسد الفارغ الذي يعجز الثوب عن لم أنوثته.. كان هــو.. هو.. والرائحة التي تضوع منها وهي تسير كالسهم أو في رخاء كالنسمة.. هي.. هي.. رائحة الوردة الحمراء. لا يمكن أن يخطيء الرائحة.. إنها معــه تلازمه.. وهي الآن قابعة في العربة.. ولكن الوجه الذي رآه مختلف.. هذا الوجه المراوغ الذي يلتبس الجسد الفارغ الجميــل، والرائحــة الجميلــة ويدخل في النور ويغتسل.. ما باله اللحظة يخطيء؟ أجاءه الخطأ وهــو في لحظة استحواذ الوجه عليه وتمكنه منه؟ أم أنه لا يجب أن يكون له شــبيه فيتعالى؟.. والعين المتسائلة من وراء فتحة الباب تقلق، ولسانه يعجز عن أي تبرير.. فتمتد اليد وتصفق الباب في قوة.. ويظل هو جامدا، ثم تخذه قدماه إلى أسفل، درجة، درجة، حتى تلقي به إلى حافة الشارع الغاص بــالوجوه والأيادي والأجسام.

(٣)

تنـزل الغلالة الشفيفة، ويتلاصق معها، يختلط الجلد بالجلد، كان يأتيها تائها وحائرا، لم تدفعه الرغبة أو الشوق، أو استثارة شيء يلبد في ذاكــرة الحس، كان يقدم على الفعل في بلادة.. ولكنه هذه الليلة يدرك أن شــيئا مبهما وغامضا لم يتعوده.. يحدث أمامه.. رآها.. امرأته.. تسوي الفراش في طقوس رتيبة، المخدات الصغيرة في الأركان، والستارة الحمــراء المزينــة بورود بيضاء تتدلى فوق رأس الفراش، ورائحة عطر نفاذة تنبعــث مــن الأركان.. والليل الغاطس في ظلمته، تحرك موجاته «لمبات» ركنية صغيرة، تبعث ألوانا مختلطة بين الأحمر والأزرق.. والشعر ينسدل على الأكتاف.. وما رآه يوما إلا مزموما فوق قمة الرأس، والقرطان الصغيران يلمعــان في

احمرار مصفر، ولمعان جلدة الوجه يشي بأن أصابع مدربه جرت عليـــه.. ولكن.. العين.. مختلفة.. العين تختلف هذه المرة.. أين الانطفاء من الوهج؟ والتحجر من خبطات الجفون حياء؟.. وانحسار القميص عن الصدر وكل الظهر.. وما كان يرى إلا ثوبا خشنا يسجن الجسم ويزمه؟!.. ثمة موسيقى لا يعرف من أين تهب.. تنساب في رقة وهشاشة.. تدغدغ الحس وتنقـــل الروح إلى عالم خفيف.. يقف على حافة جدول تترقرق مياهه وهي تتسلل عبر الورود والشجر.. ظل قلقه قائما.. كيف يطمئن.. ولم يكن يسمع إلا دقات الهاون. وخبطات الطبلة، وصدى المنفضة يزعق عاليـــا في ضـــجيج يومي، حتى إذا ما استكانت قليلا من وقع الدقات، امتدت يدها إلى آلـــة التسجيل لتدس فيها «شريطا» لمطربة شعبية ذاع صيتها هذه الأيام. وهـــو يرمقها بركن عينه. يتلوى جسدها مع صراخ المطربـــة وآهـــات النـــاي ونفخات المزمار.. يرمقها ثم يهملها فتمتد يدها مرة ثانية.. فيعلوا الصمت ويعلو فوق كل شيء.. ويتلوى جسدها عنفا وهوسا.. ويضطرب؛ ففـــي كل فعل معها يضطر. حتى يخرسها لاهثة وحتى لا يسمع فحيح الصراخ.. ولكنها هذه المرة تختلف.. تختلف تماما.. حاول أن يعرف، ولكن الغلالـــة تتزلق ويتلاصق معها.. تمتد يده لتزيح الشعر المسترسل فوق الوجه. ينهض قليلا ليتملى الوجه هذا الوجه الوضيء المشع نورا، يتلألأ ضوءا، ويتبدى اختيالا.. هذا العصي الأبي، الجامح الرامح، أمامه وفوق فراشـــه، وعلـــى مقربة من لمسات أصابعه، وملامسة شفتيه.

وتتمشى أصابعه في رهافة مدغدغة، ويستريح الوجه بـــين كفيـــه، ويستريح الوجه في وداعة وارتخاء.. ويقبض عليه.. هذا الهـــارب دومـــا،

صاعد القلب ساخن الحس، راعش الدم، كان الوله ينساب تيارا دافقا لم يعهده يوما في حياته. هذه الليونة الطرية تتماوج مع لمحات الوجه المعطر ضوءا.. أدرك لحظتها أنه جمع في يده كل أصوات البلابل، وكل روائح الورود، وكل نعومة المخامل، وكل الأضواء المستورة.. في اللون الأبيض.. هذا اللون المخادع الذي يقهر الألوان.. وها هي تنساب رقيقة، كل المخبوء يتبدى، ينصهر الجامد ويشيع رقراقا كموجة فجرية، وهي بجانبه تشهق يتقاطر الدمع من عينيها، وتشهق. هذا الانسياب العاطفي لم تحسه يوما. كان يأتيها باردا، أو عنيفا، فما باله الليلة رهيفا كنسمة الفجر، نافرا كدفق النور، باهرا كشلال من الموسيقى!! تتماوج البسمة.. وتخرج من غفوة النشوة وذوبان الحس.. وتهمس:

- أنت الليلة تختلف!!

كان لا يزال قابضا على الوجه بين أصابعه، وكانت عيناه تغيبان في إغفاءة شاردة وحط على ملامحه رضى واطمئنان.. وكانت الفرحة تتخايل عليها وتتمايل، وظلت تهمس في هشاشة صوت لا يدرك..أنت الليلة تختلف.

وهو يسحب نفسه شيئا فشيئا يرفع الرأس، ويفتح العين ويرى الوجه ويتبلد.. كانت امرأته قد أرخت ملامحها.. وراحت في غفوة عميقة، وتبلد.. نتر نفسه في عنف ورجفة، ألقى على امرأته نظرة ممرورة. وارتدى ملابسه، وانطلق إلى الخارج، وصراخ المطربة الشعبية المنبعث من المسجل يطارده. والوجه المراوغ يقتله!!

(٤)

تنساب أمامه المياه رقراقة، وتنحدر في قناة ملتوية حادة الحافـــة، ثم تتعكر وهي تختلط بماء البركة، وتتناثر خيوطا فضـــية حـــين يخـــبط الأوز بأجنحته.. ود لو يخلع ملابسه ويغوص سابحا إلى القاع، فمنـــذ أن خلـــع ملابسه على شاطئ البحر من سنين، وهي ملتصقة بجلده لا تنخلع إلا حين تشرع امرأته في تشغيل الغسالة.. لحظتها يتحامل على نفسه أمام نظـــرات زوجته، ويشد السروال، وينظر إلى ملابسه الداخلية، ويتحسر على إفراط زوجته في الغسيل، ويرى أنها – أي الملابس – لا تزال صالحة ليـــومين أو أكثر.. ولكن أن يخلع ملابسه ويتعرى، ويخبط بذراعيه المـــوج، ويغـــوص كسمكة.. و.. و.. يغوص كسمكة وراء المحار ذي الألـــوان المختلفـــة.. والسمكة البهية تواجهه ولا تخشى. هنا يظهر اللـــون المخبـــوء.. لم يعـــد الأبيض اللون السائد.. ترى الحقيقة بـــاهرة ملونـــة بالأصـــفر والأحمـــر والأزرق.. تتداخل الألوان نسيجا لونيا رائع المنظر، ويبقى لكـــل لـــون مساحته، حتى وهو يتداخل يظل محافظا على نسبته وإن تبدى شبحا لونيا. والسمكة تتزلق في مسارات ضوئية وترعشك بالنور واللون، تأخذ منـــك هذا التيار السيال في جسدك ولا تشعر به. تسحبه ذبذبة راعشة فلا تملك إلا أن تنساق وراءها، وأن تتعرى ليتلقاك موج القـــاع الأكثـــر بـــرودة والأوضح مجالا لرؤية الضوء.. لأنك كلما تغوص كلما تقف على مواطن مظلمة تتراكم فيها العتمة وتتمدد.. وتظل السمكة البهية المختالة بنفســـها وجمالها وألوانها تسحبه شيئا فشيئا.

ولكن الأوزة بخطوها القوية وبانطلاقتها المسرعة تشق صدر المـــاء، أضاعت من عينيه تلك السمكة البهية المختالة بنفسها والتي سحبت مـــن جسده جذوة ظلت تتحرك ولا تبين.. أمال جذعه والتقط حصاة ورماهـــا بالماء، واقترب، أحدثت الحصاة تموجات رقيقة على السطح، أدهشـــه أن يرى القاع خاليا من أي جمال، فانسحب مهموما ومدهوشا، أرعبه هـــذا الصمت الذي يتغلغل في سكون ويتسلل إليه رويدا ويدا، يحس به يـــرعش اللحم متسللا دون أن يقوى على إيقافه، شيء ما يفرز فيه هذا الســـائل الرقراق الشفيف الذي يحيل الجسد هالة من الظلال. ويظل يتجول خفيفا ومهموما.. أدركه خوف مبهم فالتصق بساق شجرة، كان اللحاء خشـــنا مدببا، فأضحت ملامسة الجلد له مؤلمة.. باغت نفسه وجرى.. وهو يجري أدرك أنه يجري وسط الموج الأخضر فخفف من عـــدوه، تمتعـــت عينـــاه بالورود والزهور، وسقطت على مسامعه وشوشـــات الأوراق وتـــرانيم العصافير. وامتدت يداه تلامسان الثمار، ومشت أنامله على فتحات المناقير تنساب موجا من النغم، وتفتقت بين راحتيه قشرة الرمان، ولاح الحـــب الأحمر مدمما كالعقيق، وازداد الفتق حتى وصل إلى القلب.. كـــان محاطـــا بغلالة بيضاء، تفصل تجويفا عن تجويف، وتتمدد الغلالة وتتسع، وأنفاســـه تتلاحق، يقترب في رعشة الرغبة. ورهبة الخوف والغلالة البيضاء تتسع.. وأنفاسه تتلاحق، وعيناه يتفجر منهما الينبوع المستور المستكن وهو يـــرى بمجامع عينيه، ملامح الوجه تتشكل على رقائق الغلالة.. ها هـــو الوجـــه الوضيء يتبدى.. ويترنح، لم يقو على المواجهة، ولا على رؤيـــة المســـتور والمخزون.. ويترنح. ثمة يد بيضاء تمتد لتسنده، تخذه تحت جناحها وتضمه،

وتقعد به على خميلة من العشب الأخضر، تفرد ذراعه، وتفرك عينيه، وتقرص خده، وتحدث في عينيه، هذا الجسم المخملي - نفسه - يتمدد بجانبه. تتمشى يداها برائحة الورد المنساب.. من زجاجة بللورية - على الوجه الغافي - يحاول أن يخرج إلى النور فلا يقوى.. من يقدر على مواجهة الوجه وهو في لحظة ضعف عافية.. يحاول أن يخرج إلى النور ولكنه بكل ما يختزنه من تيار سيال في مجرى الوجدان.. يتلقف اليد الممدودة ويقبض عليها.. يقبض عليها ويتضرع إليها.

- آلان.. لن تهربي مني!!

ويطوح برأسه يمينا وشمالا، ويخلع عينه من كل المرئيات، ومن كل الألوان، ويتغنى صادحا:

- أنت اللحظة قمري وضوئي.. لن أفرط فيك ولو أخذت عمري.

ويضحك الوجه الوضيء فيغمر المكان نور باهر متعدد الدرجات.. لا سيطرة فيه للون.. يضحى الكون كله، سماؤه وأرضه، متشحا بغلالة النور.. يرتسم عليها ملامح الوجه بعرض السماء وعمق الأرض.

ويفتر الثغر عن لفظ مضيء:

- ولكن عمرك يهمني.

وتأخذه سحابة بيضاء فيهمس:

- أيهمك أمري؟!

ويتلاعب الوجه بالنور فيأسره:

– إنه أنا ينساب فيك ولا تدري.

وتنعقد الدهشة فوق الوجه كله:

– وكيف أعثر عليك فيَّ؟

وتنداح فوق ماء العين ظلال من الضوء:

– عندما ينير داخلك ويشتعل.

ويصرخ فرحا:

– هو الآن يشتعل.

وتبتسم:

– ولذلك رأيتني.

ويتفجر غضبا:

– ولكنني الآن لن أتركك.

ويضحك الوجه، وتتلألأ الضحكة فوق الغصون شريانا من النور.. وتمتد يداه بكل قوته وتمسك.. وتضغط.. هذا الوجه وهذا الجسد الفارع، أمامه ولصق جلده وبين أصابعه لن تضيع مني.. ويضغط، ويظل يضغط، وتمتد أصابعه تحاصر الكتف، والذراع، والصدر، وتدفن الوجه في الوجه، ويضغط في قوة – الآن لن تضيع مني – وتتقلص أصابعه، تتقلص، على حين تندس في باطن اليد زجاجة من العطر، عطر الورود المصفي. تلك الرائحة التي تغلغلت في مسامه. حين فرك عينيه، وفرد أصابعه لمح

الزجاجة، اجتاحه ذهول، خلع عينيه عن حافة القناة، وأدار بصره في كـــل اتجاه.. بحث عنه.. فلم يجده، لم يجد للوجه أثرا.. صاح فارتجت الأشـــجار ودلت الطيور أجنحتها.. أصابه غم غويط فانكفأ على المقعد يبكى.

(٥)

كان يسير في الشارع يخوض الزحام ويطوي المكان.. وكانت أقدامه تتعجل المسير وتدخل إلى الاقتحام.. لم يعد هدفه أن يرى المرئيـــات كمـــا كانت. حينما استحوذت عليه يوما بعدما يخرج من عمله.. كان يقضـــي وقته في الشارع.. كان الشارع هو الملاذ، وهو الملجـــأ.. يتصـــفح فيـــه الوجوه.. به اقتننان بالوجوه.. مغرم بتحديد طبيعة الشخصية عن طريـــق ملامح الوجه.. بالرغم من أنه وقع في سوء فراسته وهو يختار زوجته، جاء الوجه مدببا مسحوبا عند الذقن، عريضا عند الجبهة، بارزا على حـــدود الخدين، ظن فيه خيرا، ولمح – كعادة تصفحه للوجوه – ثباتا وانفســـاحا، وأدرك أن ثمة عالما فسيحا وراء اختياره.. ولكن الزمان عاكســـه.. حمـــل الوجه طابع امرأة عنود حادة المزاج.. ولما وقع في سوء اختياره.. عـــاود الخوض في الزحام، والركض في الشوارع، وتصفح الوجوه من جديـــد.. فلعله يقع يوما على سر سوء اختياره.

ولكنه اللحظة مشغول.. دهمه الوجه الوضيء، ونسجت الرائحـــة حوله قماشا من عطر الورود. ولم يعد قادرا على رؤية أي وجه. أو التصفح في أية ملامح.. وكان إذا اضطرته الصدفة أن يرفع رأسه عنـــد مســـتوى الرؤية، كان يغفي العين، ويرخي الجفن، اتقاء وخوفا، فما يدريه لحظتها أنه

لن يأتيه – في تلك الغمضة – كاسحا وهادرا. فالوجه الوضيء هذه الأيام يكثر من الظهور والاقتحام.. كيف يتواصل معه وسط هذا الحشد من الناس؟ وكيف يكون موقف الناس لحظة أن يعتريه الذهول وتنضح من عينيه النشوة؟.. لم يستبعد أن يذهبوا به إلى مكان لإيداع المخبولين.

أخذ حذره وهو يمشي، الرأس منكفئ على الصدر، والعينان لصيقتان بأسفلت الشارع. والذهن واع تماما.. وهو يكبت رغبة في رفع الرأسه خشية أن يراه مترقرقا على أحد الوجوه.. ثم ينسل منه مخادعا.. ويبقي له القامة الفارعة، فهو لا يدري لم يحط دائما على القامة الفارعة؟ ولم يختار الجسد المتفتق الذي يعجز الثوب عن لمه؟.. إنه واع تماما لخدعاته المستمرة.. لن يحتك بأحد. سيتجنب كل أنثى، ولو كانت عجفاء القد. فهو يصر إن ظهر له هذه المرة أن يقبض عليه بكلتا يديه. ثم يحدث ما يحدث.

هو أو الوجه، كلاهما لا يستقيم، واحد فقط.. صمم أن يضع نهاية لهذا الوجه المارق المخادع، إنه نشوته، ولكنها النشوة الناقصة.. وتقف أمامه بكل جسدها، يرى الظل على الأسفلت صغيرا ومحدبا فتيقن أن صاحبة الظل عجفاء، وهو لا يحب هذا الصنف من النساء.. ويمد يديه ليزيح الجسد من أمامه، فهو مشغول، وليس عنده وقت، فهو ذاهب إلى صديقه الرسام.. ومد يده ليدفع الجسد، دون أن يرفع بصره، فمازال يخشى أن يداهمه ولو على جسد عجوز.. ولكن الجسد يفاجئه، كان الجسد مدكوكا ومبروما، سحب بصره من الأسفلت، إلى القدم فالساق فالخصر،

فالبطن والصدر.. ثم.. وقف مذهولا، ومدهوشا.. إنه يترقرق في بسمة مترعة بألق الفجر ونور الضحى. لم يمهله. لم ير الملامح المرتخية الوضيئة وهي تواجهه كأنما تدعوه. ولم يمهله، لم يحاول أن يقف طويلا أمام نظرة العين الراشحة بكل جلال النشوة وموجات الحب. ولن يمهله الوقت مهما طال والناس ينظرون، والشفتان المكتنزتان مر عليهما عابرا، كأنما يخترق سحابة من العقيق مسها سيال كهربي فأرجف القلب والحشا.. وما أمهله .. انقض عليه.. انقض عليه قابضا.. لا يريده أن يفلت منه.. أيأتيه وسط الحشد ويلازمه، وهو الهارب المخادع في الخلوة؟.. طمأن نفسه بأنه ربما يود أن تكون ولادته الحقيقية وسط الناس، ليشهد الناس جميعا على حلول الاتصال واكتماله..

خاف أن يلاطفه فمازال لابدا في أعماقه كيف أنه يأتيه مداهما ويفر منه كسحابة هاشة.

وتظل يداه قابضتين على الوجه.. ويروح الجسد من هول المفاجأة مترنحا، فيسنده فما عادت وسائل الوجه المربكة تنطلي عليه. وتمتد يداه لتحتضنا الجسد المبروم كله، يحوطه خوفا وطمعا، يتعرى فيكسوه، فلا يصح للساق البيضاء اللامعة المخروطة أن تتعرى لأحد سواه، هو أحق بها، أليست ملكا للوجه؟ وأليس الوجه يغزوه في صحوه ونومه.. إذن.. فهي ملكه.. ما الضرر أن ينعم بملمسها قليلا.. على ألا يخدع فيفر منه ثانية.. وتمتد أصابعه لتكتشف الثوب المزين بأوراق الشجر، فيبدو الساق كغصن أترعه عرق الحياة.. ويزداد ضغطا وقبضا، لم تخدعه أبدا تلك الأصوات

الزاعقة التي تعلو من الجسم، فمن يدريه.. فقد تكون حيلة من حيله الكثيرة هذه المرة لم تفته القبضة التي سقطت على رأسه، أوجعته الضربة فأدارت رأسه، فوجد الرءوس متلاصقة، والأيادي مرفوعة والعيون يطل منها شرر كالنار.

تمعن في الوجه فلم يجده، أعاد النظر إلى جسد المرأة فاحتواه ندم مرير، نهض منكسر الخاطر، تعلو وجهه كدمات زرقاء. لم ينس وهو ينسحب في ترنح جملة ظلت تطوف حول أذنه. قبل أن تخترقه، وتدميه في القلب:

– دعوه.. إنه مخبول.

(٦)

واقتحم عليه خلوته، دخل دون أن يؤذن له، فليس بين الأصدقاء حواجز، وما يحمله من هموم فوق كل حاجز. صديقه – وهو يراه مقتحما – لم يعره اهتماما. وظل يمارس عمله. فقد اعتاد منه في الأيام الأخيرة أمورا تبعث على الدهشة. حاول أن يرجعها إلى الخلاف الدائم بينه وبين زوجته، ولكنه اقتنع أن ثمة باعثا مغايرا وراء سلوكه الذي يتصف هذه الأيام بالخروج على إطار التعقل. ومع ذلك فلم يسعده أن يتركه في ذهوله وحيرته، وحركته الدائبة وتنفسه اللاهث وعينيه الحائرتين، فغمس ريشته ووضع «البالوت» وأزاح قماشة رقيقة على اللوحة، وتوجه إليه. كان ينتفض، يهتز اهتزازا عنيفا أرعب الرسام. قاده من يده وأجلسه وصب له فنجانا من الشاي، وقدم له لفافة دخان وسأله في بلادة:

– خلاف جديد بينك وبين امرأتك!

ولكنه ظل صامتا، ينظر إليه، والدخان يتماوج في سماء المرسم.. لا ينطق:

– وتريدني أن أتزوج!

وضحك الرسام، وهو لا يزال صامتا محدقا، حتى خيل للرسام أن صديقه قد أصيب بمس. وكانت لفافة الدخان قد أتت على أنفاسها وشرع الوهج ينتقل إلى الفلتر وجلد الأصابع، وهو صامت ومحدق، كان مستغرقا تماما فلم يشعر بلسعة النار. التقط الرسام الفلتر وهزه في خفة وفي رقة محسوبة. وانتفض، انتفض ونهض واقفا مرعوبا وصاح في خفوت ممطوط واصبعه مشرعة في الفراغ.. في تحد مرتخ:

– سأقبض عليك ولو على الورق.

ارتاع الرسام، فهو لم يألف من صديقه تلك الحدة المرعوبة والمصحوبة بنظرة غير محددة.

واقترب منه، حاول أن يتلطف معه فبادره في تبسم:

– أتقبض علي أنا؟!

ودون أن يلتفت إليه، أو يحرك رأسه، أو يرخي جفنيه، رد في بطء شديد:

– بل هو.

– هو.. هو من؟

– الوجه.

وصاح في عنف وحدة وتقلصت ملامح وجهه كله، ووقف جفناه لا ينطبقان:

– الوجه.. الوجه.

هدأ الرسام من روعه وأجلسه، وقدم له ثانية فنجانا من الشاي الساخن وأشعل له لفافة أخرى، أدرك الرسام أن صديقه يقع تحت وطأة أمر ما يثيره ويضغط عليه، وحل صمت مطبق حتى ليخيل إليك أنه تسمع دبيبه في جنبات المرسم. وتتابعت موجات الدخان في حبل متعج وهو يلاحق تلاشيها بعينين متسعتين. حط السكون عليه فازداد دبيب الصمت، واسترخت ملامحه وأسند ظهره ومد ساقيه، وبدا كما لو كان في حالته الطبيعية.

تحدث الرسام في نبرة حزينة، وهو يحرص على أن يبعد عن مواطن الإثارة:

– منذ مدة لم تأت إلى المرسم.

رشف من الفنجان رشفة. وسحب من اللفافة نفسا عميقا، ووضع ساقا فوق الأخرى وأمال رأسه قائلا:

– جئتك لتساعدني.

– فيم أساعدك؟

– أن ترسم لي الوجه.

مرة ثانية يتحاشى الرسام الحديث عن الوجه، فهو لا يستطيع أن ينسى الهول الذي لاح على ملامحه وهو يصرخ.. الوجه.. الوجه. أي وجه هذا الذي يثير فيه هذا الهول كله؟

ولاذ بالصمت. انتظر أن يكمل حديثه ولكنه هو الآخر لاذ بالصمت، واستغرقه شرود مباغت. فقام الرسام إلى اللوحة ورفع عنها الغطاء، وبدأ يتأملها، يقترب ويبتعد وهو – وقد خرج من شروده – يتابعه ويتأمله.. ثم نهض وتقدم إلى اللوحة:

– جميلة، ولكن اللون الأبيض يطغى على الكل.

– إني أرمز به.

وقاطعه في حدة:

– لا ترمز به لشيء. كيف يكون المخادع رمزا؟

– ولكنني أريد أن أحمله معنى..

صاح في غيظ مدمدم:

– هو ظالم، قاس، طاغ، يفرض سطوته على بقية الألوان، يأكلها، يضمها ثم يطويها، ويخفيها، ولكنها ستظل موجودة ومستترة.

– اللون الأبيض.

– الوجه.

ويقترب من الرسام. يلاصقه. يتودد إليه. يلتمس منه ن يرسم له هذا الوجه الوضيء الذي لا تكتمل النشوة إلا به، هو الوصال، والحياة، والهجر، والألم:

– أمعك صورة له.

– وما فائدتك لو كان معي صورة.

– وكيف أرسمه؟

– سأصفه لك.

– ألا يستحسن أن تأتي به نفسه.

ويتحرك في المرسم، هائجا، وصائحا.. مرددا: آتي به.. آتي به!..

ويواجهه في غضب وحدة:

– كيف آتي به وهو يترقرق كالموجة، على وجه القمر، أتستطيع أن تـــأتي بالموجة الرقراقة لترسمها.

– أذهب إليها.. أنا.

ويردد . يذهب إليها. هذا الرسام مخبول. ويقف أمام اللوحة، يخلعها في عنف ورقة مكانها، ويقبض بيد مرتعشة على الفرشاة والبالوت. ويتقدم إلى الرسام والدمع ينعقد في المآقي، ثم ينداح قطرة مكتنزة بالألم.

– ارسمه. أرجوك أن ترسمه، فربما أستطيع أن أقبض عليه ولو على الورق. أخذ الرسام الفرشاة منه.

ووقف أمام اللوحة وقال له:

– إذن صفه لي، وأمري إلى الله. تنحى جانبا، أدار ظهره إلى الباب، واقترب من النافذة، همس في هشاشة لا تسمع:

– مم أبدأ؟

– كما تريد.

حاول أن يبدأ، فاحتار، مما يبدأ؟.. فليبدأ من قمة الرأس. من الشعر. مثلا. ثم يترل درجة درجة، حتى الذقن فالرقبة. ولم لا أبدأ بما هو مثير ومهم. بالعين مثلا؟ أو الشفتين، أو.. حاول أن يدقق في شيء مما كان يراه فلم يستطع. واستعصى عليه الأمر. كاد ينفجر غيظا وغضبا. بل كاد يتمزق. امتدت يداه إلى قميصه، فتقطعه وتبعده عن جلده الذي يلامسه، ويتر منه عرق غزير كشلال. وفي اللحظة التي بدأت الأصابع تبعد ياقة القميص.. لحظة أن بدأ القلب ينغل بالحقد على هذا الذي يتأبى على الذاكرة.. ترقرق كموجة فجرية على لوحة أمامه.. وقف مشدوها لا ينطبق، جاءه الغيث بعدما شعر بالجدب والموات.. ظل واقفا لا يتحرك، راعش القلب لا يهتز، يصيح داخله ولا ينطق.. وانسحب من داخله صوت ينتدي بالفرحة ويشى باللذة، وحبات العرق تنعقد على جبينه كحبات الثريا.

– ارسم ولا تقاطعني.

واحتار الرسام. تملكته حيرة فنية باهرة لم يمر بها من قبل. كيف يجسد كل هذه المعاني الجميلة في لوحة؟.. كيف تكون العين نافورة ضوء تشع بالألوان السبعة، لا يطغى فيها لون على آخر. كيف تجمع العين كل الألوان؟ بأي لون؟ وبأية فرشاة وبأي وهج فني تتحول أغصان السوسن النائمة إلى أهداب للعيون، تقف على حواف بحيرة تستقبل موجة ضوء فجرية.

ووقف مأخوذا. حاول أن يوقفه فلم يستطع. كان شيء ما يشده إلى اللوحة يقرأ ما فيها دون أن يدري. أدرك أن صديقه في غيبوبة، غيبوبة اتصال نادرة. بدا له صديقه نفسه موضوعا ممتازا للرسم. فكر في أن يغير اللوحة ويرسمه هو. تلك لحظة نادرة لا يجود بها انفعال على طول ما رسم وشاهد. ولكن الصوت يأتيه خافتا وراقصا. خيل إليه أنه يأتي من خلف اللوحة. لم ير في اللوحة جديدا، حتى تجذب صديقه كل هذا الجذب. وعاودته الحيرة. كيف يرسم انثيال المعاني الشعرية في خطوط وألوان.

الشعر الأصفر المنساب على الجبين والجابنين يحمل معنى اقتراب الشمس من خد الأرض البكر الخجول. لا تنس أن الشعر يتموج بموج البحر، مترع بما في جوفه من لآلىء وأصداف. تذكر أن في القاع عتمة، لكنها عتمة ما قبل الفجر، تذكر ذلك وأنت تلمس بفرشاتك التقاء الشعر بالجبين.

ويعلو اللهاث، ويطفو الانبهار، وينبهر الرسام بما يرى. تلك حالة لا تحتاج إلى فرشاة، إنها في حاجة إلى من يلتقطها فورا على فيلم طويل. وتقف الفرشاة بين أصابعه عصية. من أين له بلون يجمع عصير الكريز ونزف الدم ليرسم الشفاه. الشفاه لابد أن تكون حارة وأنت تراها. حرارة دم متروف في فرحة، يتألق فيه لون الكريز واستدارته. وليكن الشق الدقيق بين الشفتين رهيفا كحد الصراط ولكنه لا يحجب لآلىء البحر. وتأكد تماما أن البسمة رقيقة كأوراق الورد، ممطرة كأريج الزهر، متموجة كسحابة تحمل الغيث للعطشى، هاشة لا تدرك كنسائم ليل قمرية. وامتدت يد الرسام إلى

علبة الدخان، سحب لفافة وأشعلها، كانت أنفاسه عميقة عمـــق حيرتـــه. تتابعت موجات الدخان، ثم ضغط اللفافة بعصبية، وهو يمسك بالفرشاة في لهاث فني مبهور.. وهو يحاول أن يجعل من الخد مرفأ للأمـــان.. تـــأتي إلى الخد، فيعطيك الأمان بعد رحلة طويلة في بحر ناء من العذاب والمكابـــدة، تحملك موجة، وتأخذك أخرى حتى تصل إلى المرفأ الحضن، فتجده منتظرا، أحمر حمرة التفاح وأنت تطبع فوقه قبلة الوصول.

ويقف الرسام صامتا ومذهولا. والفرشاة بين أصابعه تتحرك، وكأنما موجة أثيرية، تهب عليها فتأخذ معها ما تريد من معـــان، ومـــن خطـــوط وألوان.

وقفت الفرشاة عند طابع الحسن.. وطابع الحسن كما تعلم هو لؤلؤة الوجه. إذا ما نظرت إليه خيل إليك أنه ينبوع للفضة. بل هو نبع للحيـــاة تتدفق منه المياه صافية كالبللور. لا تنسى أن تعطى طابع الحســـن معـــنى العمق ولون الفضة وصفاء الماء.. فهو في استدارته كون بأكملـــه.. ثم ثم.. وأنت.. الفنان.. ثم .. هو نقطة .. ارتكاز.. الذقن.. في انســـحابها إلى.. العنق.. ثم.. و.. تذكر.. وثم.

ويسقط مغشيا عليه. ويسقط معه الرسام متعبا ولاهثا، ومبهورا.

(٧)

حين جاءه رجل الشرطة وقع في حيرة شديدة، فهو متيقن من أنـــه لم يفعل شيئا يحاسب عليه القانون ويقتضي الأمر بالاستدعاء، ليس له اهتمام بالسياسة، ولا يتدخل في الشئون الخاصة، ولم يتسلق يوما درجات هـــرم

حتى يخشى من يقبع على القمة أن يزاحمه، وهو متأكد تماما أنه لم يقم بفعل فاضح من نفسه أو من غيره.. فلم الاستدعاء؟.. أتكون المرأة قد أسرعت وقدمت بلاغا ضده.. ولكنه يذكر تماما أنهم اكتفوا بضربه.. والضرب في المجنون حرام.. أهي مشاجرة جديدة من امرأته مع جارتها التي تغار منها.. كلما تضحك المرأة لي أو مني أو تبتسم.. لم ينس كيف سحبت امرأته جارتها من شعرها ورمت بها على درجات السلم.. ولولا لطف العشرة وتواصل الود، لما قبل زوجها أن يكتفي بأن نعالجها على حسابنا الخاص.. ولكن امرأتي هذه الأيام تغالي في الرقة، وتمتاح من نبع الحنان الطارئ ما يجعلها مشغولة بتحديد الطقوس الليلية منذ أن ظهر الوجه.. وتخدرت بلحظات الدفق الرعاش.

– فيم الاستدعاء؟

أخرج المحقق من درج المكتب صورة صغيرة وأراها له. هب واقفا ومذهولا، مد يديه كلتيهما وفرد أصابعها كلها، وأمال جذعه، ووقف لسانه ولم ينطق، وظل معلقا بين شفتين مفلوجتين:

– أتعرفها؟

كيف لا يعرفه!.. ولكنه الآن جامد جمود قطعة حجر! أين الرقرقة والوضاءة والنبالة؟ أين العطر الذي يمشي في المكان ويعطر حتى الفراغ نفسه! أين؟.. أين؟.. ولكن المحقق لم يمهله:

– أتعرفها؟

– أعرفه.. نعم أعرفه.

– ولكنني أسأل عنها.

– وهل لي حديث غيره؟

بدا للمحقق أن الأمر يدور في مدارين مختلفين فاقترب منه وهمس:

– ماذا نعرف عنها؟

– عمن تتحدث؟

– عن المرأة التي خطفتها.

– إذن فأنا متهم بالخطف.

– إنها اختفت فعلا.

ويزداد اقترابه منه، وهو يزداد انكفاءً ودهشة:

– و.. وكنت آخر من رآها.

– رأى من!

ويصيح المحقق في حدة:

– لا تناور فقد رآك رجل الشرطة وأنت تنطلق من سيارتك إلى البناية المواجهة.

– أهو يسكن هناك؟

– قلت إن المخطوفة امرأة.

– ومن أدراكم أنني كنت هناك فعلا؟

ويسحق المحقق سيجارته، ويحتسي الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة:

– إنها تحمل نفس ملامح اللوحة التي تضعها في السيارة.

– نفس الملامح!

– نفس الملامح!

– ويسكن في البناية المواجهة للميدان.

– وتسكن في البناية المواجهة للميدان.

ويهب فجأة صائحا في هوس:

– ولكنني تركتها.. تركتها لأنني لم أره.. نعم لم أره.. فهو وجه.. وضيء.. وحلو.. ولكنه مخادع.

ويتحرك أمام المحقق في شرود واضح ويتابع:

– تتصور أنك قريب منه، حتى إذا هييء إليك أنك قادر على مسكه، فلت منك، وترك لك جسما مغايرًا تماما.

ويشير إلى المحقق في جد واضح:

– إنه سرعان ما يترك الجسم فجأة.

– أكنت تحبها؟

– كيف لا أحب من يعطيني لحظة الحب والاتصال.

– أنت الآن تعترف أنك تحبها.

ويحتد المحقق، ولكنه يتراخى شيئا فشيئا أمام هذا الذهول الراشح من العينين:

- أتصفه لي!

- أصفه لك!!..

إنه الضوء المنساب من موجة قمرية ليزيح ظلالا تتراكم فوق النفس.. هو النسمة الرطبة في ليلة صيف حارة.. هو عينك.. حين تفقد عينك.. هو القدرة على الاختراق لترى ما تحت القشرة، وما داخل اللحاء.. أصفه لك!! .. كيف أصف البسمة تكتنز في الشفتين ثم تتماوج.. في تجاذب حتى تتلاحق موجاتها إلى مسام جلد الوجه الوضيء.. مسامه المخملية.. هو..

ويقف فجأة، جاءه النداء المرئي، فوقف فجأة.

ظلت ذراعه معلقة في الهواء، وفمه نصف مفتوح، وأصابع يده الأخرى في حركة مطوية، وعيناه مصوبتان على زجاج المكتب.

أدار المحقق رأسه بينه وبين الزجاج.. داخله ذعر وقتي بأن ما يراه خارق للعادة، وصادق في نفس اللحظة.

كان الوجه يترقرق خلف الزجاج.. جاءه اللحظة مداهما.. كعادته يأتيه في لحظة الفقد والشعور بالضآلة.. يأتيه يصب النور في العين فتقوى، ويرش العطر على الروح فتنتشي.

كان الوجه يضحك، فضحك. غرق في الضحك وظل يضحك.. حتى أخرسه الوجه فأمال جذعه إليه وهمس:

– إنهم يبحثون عنها.. ما علمت أن لك جسما.. وإن دخلت كل الأجساد.

ويضحك.. يضحك في نبرة حزن تسحب الدمع من العين:

– كيف أخطف من لا أقوى على مسكه.. كيف تقبض على الحب، أو الفرح، أو النشوة أو الغيبوبة.

ويرفع يديه في ضراعة، والمحقق مذهول.. مذهول لدرجة الذعر الحقيقي:

– كيف تفعل بي كل ذلك.. لقد أوصلتني إلى الشرطة فماذا يبقى بعد؟..

ويضحك.. يضحك الوجه زاعقا، يضحك طفلا، ويبتسم قمرا، ويضيء فجرا. وينتفض المحقق، الضحك يملأ الغرفة، يملأ الفراغ، وينسحب الوجه شيئا فشيئا.. ينسحب كما تنسحب حواف الدوائر لموجة عاتية ولكنه ينكفيء، ينكفيء على الزجاج في نشيج حاد، وهو يصيح:

– لا تتركني هذه المرة.. لا تتركني..

(٨)

كتب المحقق في محضر التحقيق.

بالرغم من أن الحالة تقع تحت طائلة القانون، إلا أن المشرع فاته أن يستحدث وسيلة ما للوصول إلى كيفية القبض على دليل الاتهام وهو يسري مع الدم في وجدان الحالة.. ولذلك أمرنا بإقفال المحضر، وإنهاء التحقيق حتى يتسنى لنا الكشف يوما ما عن دليل الإدانة الوحيد، وهو يتستر في وجدان الحالة.

(٩)

أخرج زجاجة العطر وضغط عليها، فتناثرت رشات العطر فواحة برائحة الورد.. وغمرته موجة فرح فجرية.. فأدرك بداية حلول الاتصال .. فمضى منطلقا إليه.. ولم ينس في لحظة انطلاقة أن يعلق على صدره اللوحة.. فمن يدري ربما ينخدع الوجه ويتلبس جسمه.

الحلم يأتي غدا

(١)

كان قد مضى عليه وقت طويل وهو يحمل نفسه على الصبر، ويمنيها بيوم جديد تتغير فيه الأحوال وتستقيم، ولكنه – لحظة أن عاد من عمله الشاق وجسمه ينقذف إلى بيت الإيواء في أطراف المدينة – فوجئ بمشهد غاية في الإيلام.. الزوجة تنحني على الابن في توجع، والولد الصغير ممدد على الأرض لا حراك فيه.. هزه التوجع، وأدهشته حركة السكان التي لا همد، فانقبض صدره وارتجف القلب. وصله صوت متعجل:

– أحمد الله.

بنصف وعي شاهد المرأة تقتحم الجمع، وتنحني على الولد، وتعريه تماما، ثم تصب عليه الخل، وتدعك الجسد، كان الجسد متخشبا وهي تميله على جنبه، وعلى بطنه، وهي تضغط على صدره، وتشد ذراعه وأصابعه. حتى رمش الولد بعينيه. زغردت واحدة في الطرف فرحا بدبيب الحياة العائد.. ولفت المرأة الولد بإحكام، ونظرت إلى الأم. طلبت كوبا من الليمون الساخن، ولكن الأم ظلت ساكنة تنهمر الدموع من عينيها مصحوبة بشهقات متواصلة.. رمحت واحدة من الجمع، وأتت بكوب من الليمون.

احتضنت المرأة الولد ووضعته في حجرها، أسندت رأسه وقربت حافة الكوب من شفتيه الناشفتين.. وانزلق الليمون قطرة قطرة. وبدأ

الدفء يسري في الجسد. أبقته في حضنها حتى اطمأنت عليه، وابتسمت حين راحت الأنفاس تتردد في هدوء وانتظام.

وضعته على الحصير، ومهدت له فراشا، وتلت المعوذتين ثم نهضت وأحضرت ورقة وبدأت تقص وقطع حتى شكلت من الورقة شكلا لعروس.. وحين مسكت بالإبرة تخرق جسد العروس، كان الصمت حافلا بالدهشة، والعيون تتابع غرز الإبرة في القلب، والعين والفخذ والبطن والأطراف.. وطافت عيناها وهي تبتسم ترقيه، مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم ومن عيون الواقفين، وكل من رأى الولد ولم يصل على النبي.

كان الرجل لابدا في ركن الحجرة، يثيره هذا الاهتمام الكبير بولده. وتساءل في بلادة.. ماذا كان يمكن أن يفعل لو كان من الأغنياء!! أكان يمكن أن يشاهد هذه اللمة التي تأخذه بعطفها.. وزهت شفتاه بابتسامة طارئة.. فبعد لحظة واحدة.. ستنشب خناقة على دورة المياه، أو على حنفية الماء الرئيسية، ويتحول العطف إلى عنف مسلح بالناب والظفر.. وراحت الابتسامة المدهوشة تقبض على ملامحه حتى صكه صوت المرأة تطلب منه عود كبريت، تلجلج حتى كاد يقع. أخرج علبة الكبريت وأشعل العود.. وطالت النار جسد العروس.. فتمزق وتقطع وتفحم ولفظ النفس الأخير.. فأخذته المرأة وسحقته، ثم تناولت الرماد بين أصابعها ورسمت على جبهة الولد خطين متقاطعين من السواد.. وذرت الباقي بنفخة قوية مفاجئة.. وطمأنت الوالدين وانسحبت.. وهرولت النسوة وراءها، وفرغت الغرفة.. وبقيت الأنفاس كالصدى يملأ جو الغرفة ويقبض عليه.

(٢)

كانت أنفاس الولد تتابع في انتظام، فارتاح صدر الرجل، واستبشـــر خيرا. وقبع في ركن الغرفة وأشعل سيجارة. وظلت الأم بجانـــب ولـــدها وعينها على وجهه المبتل بالعرق، ونظراتها.. لا تكف عن متابعة الصدر في حركته الهادئة.. وتنبهت إلى زوجها فنهضت في خفة، ومرقـــت إلى بـــاب الغرفة وأسدلت الستارة.. فبيت الإيواء لا باب فيه ولا حاجز.. الكل يرى الكل، والكل يجرح الكل، والكل يصمت على فعل الكل.

حين جلست بجانبه، طلب منها أن تصنع له كوبا من الشاي، وشغله هاجسه اليومي الذي دام عشر سنوات.. ظل خلالها يتمنى أن يعثر علـــى مكان يقيه من عيون الآخرين.. ولما طال به التمني استسلم لواقعه، وأصابه هم غويط لاحقه طويلا.. واحتسى الشـــاي بنشـــوة أثـــارت زوجتـــه.. فابتسمت عيناه، واحتد وجه الزوجة.. وأزاحت منديلها فـــلاح الشـــعر ملموما، ثم سرعان ما انهل كسبائط الصفصاف، فتعجب من جماله وسيولته بالرغم من ندرة المياه وشحنها.

باحت عيناه بالرغبة فأسرعت هامسة:

– لا تزال العيون مفتوحة.

تنهد في ألم ثم قال في صوت ممرور:

– متى يشعر المرء بالأمان في بيته؟

سحق السيجارة بأرض الغرفة وحدق في الفراغ:

- كل يوم نصبر أنفسنا، حتى مل منا الصبر.

- وهل هناك غيره؟

- نعم.. الموت.

خرجت الكلمة من فمه باردة مدممة، فأسرعت تطيِّب خاطره:

- غدا سيكون أفضل من اليوم.

ضحك في عفوية وقال:

- لم لا.. قد يكون الغد أفضل..

مد كفيه وأحاط وجه امرأته فتداخلت ضحكتها مع ضحكه وأشرق وجهها بالجمال:

- غدا ستفتح الدنيا كنوزها لنا.

ابتسمت وظلت ترنو إليه وقلبها ينبض بحب حقيقي:

- لا تنسني وأنت تغرف من الكنز.

- كيف أنسى عمري؟

وهدجت أنفاسها وأوشكت على البكاء:

- سأشترى لك ملابس لم تلبسها امرأة.

ضحكت زاعقة فجفل الولد في نومته:

- وسأشتري لك الكردان والخلخال والغوايش.. وحلقان كهيئة القلوب.

ارتعشت، ومشت أصابعها على الصدر والمعصم والقدم:

– لا تحلق بي بعيدا.

صاح خافتا:

– ذكرتني.. سأبتاع لك الجناحين.. تطيرين بهما.

فغرت فاها، فلاحت الدهشة مغموسة بفرح صادق:

– وهل أقوى على الطيران؟

– الخوف كاملا من أجل خاطرك.

– ولكنك نسيت شيئا مهما.

أدرك المغزى، فصمت، ثم بهرها فجأة بحديث لم تتوقعه:

– هذا أمره سهل.. فغدا سيقوم الرجل ذو القلب الكبير بتوزيع الشقق على المحتاجين. نسيت نفسها، وخبطت على صدرها وقالت:

– إنه الكنز الحقيقي.

تابع في جد صارم:

– إنهم يبنون في كل عام مائة ألف شقة، ونحن هنا من عشر سنوات.. الناتج مليون شقة.

– أصحيح ما تقول!

– أعهدت علي الكذب يوما.

– ما عهدتك إلا صادقا.

واتخذ الرجل هيئة الجد، فقست ملامحه:

– لا تخبري أحدا بذلك.

همست في دلال:

– علينا أن نستقبل الغد بما يليق به.

– غدا تفتح الدنيا كترها الضنين وتحصلين على شقة.

وارتج سكون الغرفة تحت وهج الآمال وذوب الضحكات الخالصة.. وسبحا معا في مياه معتقة بأمل يترسب في العمق. كانا مسلوبي الإرادة وهما يتخطيان حدود الممكن إلى جزر بعيدة، تترصدها لجة عاتية.. وأسلما نفسيهما للتيار، مسحورين بهذا البريق المتأجج الذي ينبثق من شطآن الجزيرة، البريق الذي يخطف العين، ويأسرها، ويبقيها على اتساعها ويترق إلى القلب فيرعشه وينفضه، ويمسك الدم فيه.. وأطلق القلب دماءه ومشط الخيال ضفائره، ففقدا المناعة تماما.. وانطلقا ينهلان من المجهول الآسر المعطر برائحة جديدة نافذة، مما يوهج الأمل الذي طاف عليهما بغتة، فحطما – في لحظة انعتاق نادرة – قوقعة الأيام الرتيبة، وفتحا محارة الحلم، ودلفا إليها باحثين عن وهم جميل، ولؤلؤ ثمين.

(٣)

في الصباح الباكر ويده تمتد إلى الستارة تزيحها في طريقه إلى عمله.. فوجئ بالسكان يقفون وفي أيديهم الأطفال، اندهش للحظة، وظن أن أمرا ما قد حدث، فلا يخلو يوم من حدث. لمح المرأة الطيبة التي عالجت ولده

بالأمس، فاتجه إليها مندهشا. وخائفا. قبضت المرأة علـــى يـــده. هـــم أن يتحدث فضغطت يده بشدة وابتسمت. نظر إلى الجمـــع فـــرآهم جميعـــا يبتسمون. أمضه قلق مباغت فترع يده بقوة وصاح في حدة:

– ماذا جرى!

ظل الجمع ينظر إلى المرأة ويبتسمون، وراحت المرأة تنظر إلى الرجل وتبتسم:

– أحدث شيء!

تغضن وجه المرأة، وتغيرت نظرها، فخشي على نفسه من تعاويذها:

– يا خالة.. كأنكم تضحكون مني!

ربت على صدره في تودد:

– نحن لا نضحك منك، وإنما نفرح معك.

– من يعيش عيشنا لا يفرح.

غضبت المرأة فزامت الوجوه، طوحت بيـــدها وفـــردت أصـــابعها الخمسة في وجهه:

– عشنا معا عشر سنوات على الحلو والمر.. أتحب أن تســـتأثر لنفســـك بالحلو وتتركنا للمر.

أطل ولده الصغير من وراء الستارة فجرت إليه وحضنته وحملتـــه في حنان:

- إن لي فيه أكثر مما لك.

- أنت الخير والبركة.

قالت المرأة في حسم لا تراجع فيه وهي تحدق في قوة:

- خذنا معك ولا تحل بنا.

- أتقوين على عمل البناء

رفعت صوتها في ميوعة ونحت الولد جانبا وقالت:

- بناء!! إننا نعرف أين نذهب.

- إننى سمعت بأذني أنهم سيوزعون مليون شقة هذا اليوم.

صاحت النسوة وأيديهن تقبض على أكف الصغار:

- خذنا معك من أجل الأطفال.

أدرك الرجل الموقف، فلقد سمعت المرأة حديث الحلم بينه وبين زوجته.. أراد أن يفهمها الأمر فأصرت على أن تمضي معه حيث الرجل الكبير الذي سيوزع الشقق على الغلابة.. وتناهى إلى سمعه الرجاء والتوسل.. وبدا للحظة خاطفة أنه مهم، بل قد لا يقل أهمية عن الرجل الكبير.. وأنه قد آن الأوان ليقطف ثمرة الصبر، ويسكن في غرفة تحمي أسراره وتصون مشاعره.. وطال رأسه حتى شاهد الأعناق المصلوبة.. ونادى على زوجته:.

- احملي الطفل واتبعيني.

وأفسح الجميع له الطريق.. ونزل الدرج درجة درجة والأقدام وراءه تدق الدرجات في تعجل وثقل.. ومضى الجمع يقطع الطريــق إلى قلــب المدينة صوب الجانب الشرقي.. وكان الجمع منظما، وأصر الجمع على أن يمضوا زحفا على الأقدام حتى يشعروا بحلاوة الثمرة وهم يقطفونهــا بعــد عناء. كانت شمس الصباح تطل عليهم في رجفة مصــفرة.. وقــرروا أن يتركوا بطن الشارع للسيارات، ويكتفوا – كعادتهم بالحافة – ساروا على الرصيف في تتابع.. ولم يخل الأمر من دهشة، فاقترب البعض منهم.. كانت الملامح مشدودة. والأطفال يبكون والنسوة يلوحن بــالطرح الســوداء، والرجال كالرعاة.

وظلت المرأة تتبع الرجل مباشرة على حين مضى كالســهم رافعــا رأسه، ممسكا بذيل جلبابه، يخترق المكان يمينا وشمالا، والمرأة تدفعه والجميع يندفعون. شاهد الطريق بعضا من الناس يهللون ويقتربــون ويســألون.. صاحت فيهم المرأة أن ينضموا، فاليوم تتفتح أبواب السماء ويتحقق الأمل، ويوزع الرجل الكبير المليون شقة.. وهرع الناس وتداخلوا وامتد الجمــع وطال.. وأبطأت السيارات ثم توقفت وزاحم السائقون الجميع، وتدافعت الأقدام وثار الغبار وطمس وجه السماء بسحابة معتمة تخترقهــا بخيمــات تشع بضوء الأمل، وانعقدت القلوب بها متمنية أن تهطل خيرا يكفي الناس ويزيد.

وصل الطابور الطويل إلى مشارف النيل. لم يبق إلا أن يعبروا الجسر الذي يربط بين البر الغربي والبر الشرقي حيث قلب المدينة.. ويا لفرحــة

الرجل الكبير وهو يرى الجموع تمد اليد ليعطيها مفتاح السعادة، إنه يومه الذي يحقق فيه وعده.

وقف الرجل على صدر الطابور فوقفوا جميعا، وتسمَّر في مكانه مذهولا.. حاول البعض أن يصل إليه، فمنعتهم المرأة قائلة: "إنه الرجل، ولا رجل غيره.. هو الذي باح بالسر وهو الأمين عليه".. كان الرجل مذهولا، وعيناه مصوبتان إلى الجسر الذي بدا هوة سحيقة لم تبق منه إلا قوائم كالشواهد. وصرخ الرجل في غضب: "أين الجسر؟".. أسرع وصعد على نتوء حجري، وواجه الجمع:

– لقد انهار الجسر.

صاح أحد الرجال:

– إنها مكيدة مدبرة.

شقت المرأة ثوبها حتى بان صدرها كاملا.. ثم قالت في حزم:

– هيا إلى الجسر الآخر.

وأخذت الجموع طريق النهر الطويل في اتجاه الشمال، وتداخلت الأشجار من حركة الجمع الزاحف، ولاحت مياه النهر لابدة ساكنة كأنما أصابها ذعر، وأخذ الرجل يحدث نفسه بهاجس خفي:

– أيكون الأعداء قد دبروا لنا مكيدة.

سمعته المرأة فقالت:

– وهل للغلابة أعداء! مد يده ولملم مزق الثوب عند الصدر وقال لها:

– أحجبي صدرك عن العيون، فلا يزال فينا حياء.

ضحكت فضاع الصوت الضاحك وسط ضجة الغضب:

– ضاع الحياء في بيوت الإيواء.

ولكنها ظلت تردد في حشرة بللته ملوحة العرق.

– هل للغلابة أعداء؟!

وضربت صدرها فجأة وقالت:

– لقد فعلوها إذن.

ولكزت صدر الرجل فكاد ينطرح، وأشار إلى الجمع أن يمضي.

سدت الهرولة مسامع الناس، وسدت الأقدام منافذ الطرق، ووصلوا إلى الجسر الآخر.

كان الجسر الطويل، العريض الفخم طللا من أسياخ الحديد، وعواميد الأسمنت منكفئة يلطمها الموج من كل اتجاه. وغلت الدماء في العروق المرهقة.. وقفز الرجل على سور عال ونظر إلى الجمع.. كان الطابور طويلا طويلا.. وعيون الأطفال مذبوحة، ووجوه النسوة مدممة.. وبريق لا يقدر العناء على طمسه يطل من عيون الرجال المجهدة.

صرخ في الجمع:

– إن الأعداء يترصدوننا.

وهلل الجمع وصاحوا في صوت واحد كالرعد:

– الموت للأعداء.

مد الرجل عنقه وزعق بقدر ما تواتيه حنجرته:

– لقاؤنا عند الجسر الأخير بجانب فندق النجوم الخمس.

وبقفزة واحدة كان بجوار المرأة.

كان الشارع ضيقا محصورا بين ضفة النهر الغربية والبنايات العالية على اليسار، لم يتسع الرصيف الضيق لحركة الجمع فنزلوا إلى بطن الشارع وكانت الجموع تحتشد وتتواصل وتتدافع.. بالرغم من مكابدة الزحام.. ومشقة الطريق وطوله.. فلقد ظل الجميع صامدين تحركهم الرغبة في مواجهة هؤلاء الأعداء الذين ينسفون الطريق إلى قلب الرجل الكبير.

ثم تسمر القوم فجأة حين رأوا الجسر الضيق الصغير مهدما.. وحديده القديم يغوص في النهر، تبدو أطرافه المدببة كأشرعة غرقى.

وقف الرجل في نبرة واطئة مجللة بالحزن:

– ليس أمامنا إلا أن نجتاز النهر.

حط صمت ثقيل له وخز الإبر وحد السكين.

– ولكن النهر عميق.

– ليس أعمق من مأساتنا.

صكت المرأة وجهها وقالت في عنف وحشي:

– أتظنون أنفسكم أحياء.

أثارت المرأة كوامن النخوة فيه؛ فراح لسانه يردد في صخب هادر:

- لتكن أجسادنا الجسر الذي نعبر عليه.. وليمسك الرجل يد امرأته، ولتضع الأم ولدها على كتفها، ورضيعها على صدرها.. والفتى يقبض على وجه فتاته.. إننا ذاهبون إلى عرس الأمل.. هلموا.. أقدموا.. وأسرعوا.

وخطا الرجل خطوته الأولى.. وغاصت القدم في النهر.. والمرأة بجانبه تدفعه.. وظل يغوص، ويداه مرفوعتان حتى اختفت أطراف الأصابع، وبلع النهر الأجساد، وأد الصرخات، وقتل الرضع.. واستبقى الجميع في قاعه البارد المظلم.

قطع اللسان

يا حاج علي..

أنا أتيت إليك في مسألة..

لا تطلب مني أن أجلس.. فأنا أعلم أن جلستك متعة.. وفيها لـــذة كبيرة.. ولكن الأمر الذي يشغلني حد خطير.

لا أستطيع أن أنتظر إلى أن تفرغ لي.

مشغول!

أنا أعلم أنك يا حاج مشغول، وأن جلساءك كثيرون وأنهم والحمد لله من أعيان البلد، ولكنهم يمكن أن ينتظروا.

كيف يا حاج!..

أقول كيف! الأعيان أعيان يا حاج، ووقتهم ملكهم أما أنا وأمثـــالي فوقتنا ليس لنا.. إنما نحن نساق بالسياط.. ليست سياطا من الكرابيج.. لا تندهش يا حاج.. وإنما هي أمر.. إنها سياط الحاجة.

– أنا يا حاج أجلس معكم!!

ليس لمثلي أن يجلس مع الأعيان أو يشرب القرفـــة بالقرنفـــل أو أن يستمع لفكاهة من فكاهات المجلس والتي كما يقال يظل الرجل يضحك لها حتى تخرج أحشاؤه.

- لا يا حاج.

الهزل في غير مجلسك، وهل يطيب المقام بغير ضحكة هنا أو هناك.. الضحك يا حاج مسقى القلوب، والقلوب تحيا بالذكر ومن دواعي الذكر البسمة والضحكة. نحن في زمان يا حاج نحتاج فيه إلى نهر من الضحك يغسل أحزان النفوس وأنا بالذات يا حاج أحتاج إلى أن أجلس معك وأتشرف بمجلسك وأحوز على بركتك ولكن الحاجة شديدة والوقت يدفعني، ولا أملك أن أدفعه.

كيف يا حاج وأنت الرجل المبارك الذي يحل لنا المعقد من الأمور.. فقط اتركني أقول ما يضغط على الصدر.

لن أطيل..! من قال إنني أطيل. إنني حتى هذه اللحظة لم أدخل في الموضوع.. سأدخل يا حاج! فقط أسوق عليك النبي الذي وضعت يدك على شباكه أن تمهلني قليلا ولا تسقني سوقا إلى الكلام فأسرع.. فيضيع ما أريد أن أقوله لك.

- تقول الأمر وما فيه.

هيه يا حاج علي. إن الأمر والله محرج.. وأنا لا أستطيع أن أبسط الموضوع في بساطة، إنه والله يمس القلب مباشرة ويمس أشخاصا هم بالنسبة لي كالجدار الذي يستند عليه السقف فلا يميل أو يسقط.. ومثلك يا حاج كالنهر يلقف كل شيء ويستر كل شيء، وعندك تحط أسرارنا وهي تعلم أنها ماضية إلى سرداب لا يفتح. من أجل هذا يأتيك الناس يا حاج.

ابتسم يا حاج. فوالله لا تتحقق البركة إلا حين تبتسم. أنت رجل من أولياء الله الصالحين.

حججت البيت وزرت نبيه.

- ومشهورا!.

ومن قال إنك لست مشهورا.. إن المطايا تقف ببابك بالساعات، على أمل أن ترضى لأصحابها بالدخول.

أعرف يا حاج.. وجودي هنا تفضل منك وذلك أمر لا أنساه، ولا يمكن أن أقلل من أهميته، إن ذلك يعني أنك راض عني.. وأن عينيك تجوسان داخلي وتكشفه.

- وما دخل عينيك؟.. كيف يا حاج؟!

وعيناك تبرقان كعيني صقر، يرى فريسته على بعد شاهق.

لا والله يا حاج ما خطر ببالي أننا فرائس لك. ولكن من أجل أن أوضح أن لك عينين - حماهما الله من كل سوء - يلمع فيهما ضوء ينفذ إلى الأعماق فيكشف ظلامها ويتحسس أحجارها ورمالها.

لا تضحك يا حاج.

نعم.. نعم.. وكيف لا.. النفس كالصحراء فسيحة ومظلمة، تتخللها الرمال كما تتخللها الجبال، ويشق ظلامها نور النجم وضوء الشهاب. نعم أنت الضوء الذي نأتي إليه ليفك ألغازنا ويكشف ظلام نفوسنا.

لم نعلم في زماننا رجلا أعلم منك.

- أنا يا حاج!.. والله ما سمعت يوما لما يقال.

- ما يقال!! ألا تعرف يا حاج ما يقال.. إنه كلام خبيث.

لابد أن هناك من يحقد عليك يا حاج.. إنني ما قابلت أحدا إلا وأثنى عليك.

- كلهم!.. نعم كلهم يا حاج.

وهل هناك من ينكر علمك الروحاني، لكم شفيت المرضى، وأعدت المسروق وزوجت العانس، وأخرجت الثعابين من شقوقها، وأولدت المستعصية وألنت الحديد وطويت البر وتغذيت بسمك البحر وبيض النسور على قمة الجبل.

- دعهم يا حاج يقولون.

إنهم يغارون منك.

والله يا سادة وما لكم علي يمين، إنكم تجالسون عفريتا من الجن.

لا تؤاخذني يا حاج.. فالأمر جاء دون أن أقصده.. فأنت والله مبارك من المولد حتى الممات. ولكن.

لا تضحكوا يا جلساء الحاج فما قصدت تفكهة أو إضحاكا، إنما كان قصدي أنه فاق الجن في تخفيه وحيله.

- سامحك الله يا حاج.. أأنت محتال.. وهل يقوى مثلي على هذا القول.

أنا الرجل الضعيف آتيك لأستشيرك.. أفأسخر منك.. قطع لساني لو كان قصدي ذلك القصد.

حاضر يا حاج.. أدخل في الموضوع.. نعم سأدخل في الموضوع وهل أتيت إلا لأدخل في الموضوع.. لقد تركت العمل وجئت إلى هنا لأدخل في الموضوع.

لقد حاول الخفير اللسان أن يوقفني فلم أقف.. كنت متعجلا كـــي أحظى بمقابلتك وتفضلك بالسماح بالدخول لي.. وأنا أعلم أن المطايا تقف أمام البيت بالساعات.

– تقول هل قال لى شيئا؟

وهل مثلنا يصدق ما يقوله يا حاج.

إنه لسان، الناس يسمونه باللسان، فهو يمد لسانه فيطول كل شيء.. حتى زوجته وأولاده.

– تقول أطالك يا حاج!

– أنا لا أخاف يا حاج، وكيف أخاف وأنا في مجلست ويحوطك الأعيـــان من البلد كلها ومن غيرها.. ولكنني فقط أتحرج.

أمني يا حاج وأنا أحكي.. أمني فلقد زرع اللسان الخوف في الناس.

– ما عاش رجل يخوض في سيرتك يا حاج.. نحن لا نسمح لأحد أن يفعل ذلك.

والله إن سمحت يا حاج لذهبت إليه وقطعت لسانه.

لا تبتسم يا حاج.. أنا عند قولتي.

إذن يا حاج فلا تؤاخذني.. فالرجل يدعي أنك متزوج.

نعم يا حاج.. فالبلدة كلها تعلم أنك لم تتزوج.. ولكن اللســان لا أدخله الله جنته يدعي أنك متزوج من جنية بيضاء كاللبن الحليب، لا ترى إلا والفجر يسلخ جلده من ثوب الليل البهيم.. يدعي اللسان – كــب في نار جهنم – أنه رآك تنتظرها عند الحد الفاصل بين الليل والضــوء علــى سطح الدار.

كففت عن الكلم يا حاج لأنني خزيان.. كيف جرأ اللسان على هذا القول.

– ماذا قال؟.. تقول ماذا قال؟..

قال كثيرا، أهم ما فيه أنك كنت تستقبلها عريانا ما يسترك ثوب.. رافعا ذراعيك. منتظرا أن تأتيك وتطير بك إلى البعيد لتحط في بئر الساقية القديمة.

– نعم كذاب.

ومن يصدق هذا المعتوه، ولكنه لسان يا حاج.. وهل يصدق أحــد أنك تخاوي الجن.. هو اللسان.. نعم. لم يقل ذلك سواه.. والأمر طــال.. ولا أدري لم تصبر عليه!..

– نعم تؤذيه يا حاج.. وهل يستحق أمثال هؤلاء إلا الإيذاء.

سامحني يا حاج.. فما سمعنا أنك آذيت أحدا.. كيف والناس يـــأتون إليك طمعا في البركة وشفاء الصدور ولكنه والله ركب رأسه وتمـــادى في الغي.

لا تقل كيف يا حاج.. ولا تطالبني بالمزيد ومعك الأعيان.

نعم أنت أمنتني.. ولكن كيف يليق بي أن أعيد ما يردده اللسان على المقاهي في الأسواق. يقول.. يقول كثيرا يا حاج.. لعنه الله.

هل يصدق أحد ما بقوله.. من أن عندك ثعابين مستأنســـة تطويهـــا وتفردها كالحاوي وترشقها في الجحور والشقوق، ثم تدعوها فتأتي، تتلوى وتنفث بالسحر، وتبرك على فخذيك وتحيط برقبتك.. من يصدق هذا؟

– أصدقه؟!

حاشا لله.. ومن يصدق هذا الأفاق.

اسمح لي يا حاج أن أخطرك وأمام الأعيان، أن الوالد يسيء إليـــك وان تركته حبط عملك، وقل زوارك، وشح رزقنا.

– ما دخلي يا حاج!.. تقول ما دخلي!!

إننا نعيش من فضلك، فالأمر يستدعي المعاونة، ونحن نقوم بها، ندل الناس عليك ونهتم بالمطايا، أثناء حضور أصحابها المجلس، ونبعث بالنســـاء يبعن الزبد والجبن وسعف النخيل، وبذور الكتان وعلف الخيل والحمـــير، وزبل الحمام وريش البط، والكحل المسحوق.. الأمر إذن يا حاج لا يخلو

من مال وعطاء.. وهبات.. ومن يدري يا حاج فقد تتم البركة وتحلو بنت من بنات البلد في عين أحد الأعيان، فيكون الفرح وتتم السعادة.

– ولا والله يا حاج ما جئت من أجل هذا.. ولا قصدته ولكنه جرى على لساني، فنحن لا ندري يا حاج، في مقامك كيف يفلت منا اللسان، إننـــا نفتح أنفسنا أمامك.. وأنك تكشف ما فيها، فتترك للنفس راحتـــها فيمـــا تقول.

– المقصد!!

والله لقد أزلت عن صدري هما كان قابضا عليه، ما كنت أعـــرف كيف أحادثك!

والآن أرى أنني قادر على عرض الموضوع الذي جئت من أجلـــه، ونغص علي حياتي.. وكاد أن يهدم الجدار الذي أستند عليه.

أرجو أن يتسع صدرك يا حاج ولا يضيق بي.. فإلى من نذهب إذا لم نأت إليك.

– ولا والله لا أشرب لك قرفة إلا إذا حدثتني بشأني.. فإن صدري يضيق بي.. لا حيلة لي يا حاج.. ومن يضمن أن ألقاك بعد ذلك.

سأقول.. بالله لا تغضب يا حاج.

ولكن ماذا أقول.. الأمر مخجل.. ولكنني سأقول.

– إنما هو المنام.

نعم هو المنام.. الذي استيقظت منه مذعورا، وأنا أردد.. اللهم اجعله خيرا.. منام لا يصح أن يحدث لأمثالنا، تلهبهم سياط الحاجة، هو ترف لا يصبح أن نحلم به، ولأنه كذلك أرعبني وأخافني.. كنت في المنام عجيبا يا حاج.. لابد أنني كنت عجيبا، وإلا فكيف لي أن أتنزه في حديقة برتقال وأجوس في مماشيها وأتمسح في أزهارها، وأتحسس حباها وتحت جناحي امرأة حلوة، بيضاء كاللبن الحليب.

هل أنا على وشك أن أخاوي يا حاج؟

– زوجتي!!

تقول زوجتي.. والله لم تكن هي.. وهذا هو همى.. كيف تأتيني امرأة في الحلم غير زوجتي كيف أسمح لنفسي أن أضبط متلبسا في حالة غرام مستعر مع امرأة غير زوجتي.. أأكون على وشك أن أخاوي يا حاج.

لا يا حاج لم يضبطني أحد، ولكني ضبطت نفسي في الحلم وأنبتها، كيف أسمح لنفسي بهذا الترف، وأتجول في حديقة برتقال، وكيف أهوى امرأة غير زوجتي.

صحيح يا حاج أن زوجتي نكدية، وسليطة اللسان. وانقطع الحيض عنها وجف الصدر، ولكن ذلك لا يعني أن تفلت مني النفس وتعشق أخرى ولو في المنام.

أتضحك يا حاج. وهل في قولي ما يضحك؟

إن صدري والله ضيق. من يأول المنام إلا أنت.

إنني مصغ إليك يا حاج.

- اقترب؟

وهل هناك أعظم بركة من اقترابي منك.. فألتصق بك.. ذاك عين المنى.

- وكبدها أيضا!

نعم وكبدها أيضا وفشتها.. لا حرمك الله من البسمة، وجعل أيامك كلها ضحكا. أنا مصغ.. مصغ بكل ما في.

- نعم حديقة برتقال.

لن أرفع صوتي.. أنا أهمس إليك.. أذني في أذنك.. لن يسمع أحد. نعم حديقة برتقال! وهل في هذا شيء!

- حاقدون يا حاج! وهل على مثلي يحقد أحد، إننا نحفر بأصابعنا لنخرج لقمة العيش نسد بها أفواه العيال وندخل بها ألسنتهم المدلاة.

- معاذ الله يا حاج. أنى لي أن أعترض.. من أنا لأعترض.

إذا كان هذا تفسير المنام فهو حقيقة.. لا يخلو أحد من حاقدين.. الحقد قديم يا حاج، منذ حقد إبليس على آدم. وقابيل على هابيل.. و..

- أنا مصغ يا حاج. وهل يثرثر أحد في مجلسك وأنت قائده وصاحب جلسته.. أذني على اتساعها.

- يا لطيف.. ذاك والله ما كان ينقصني.

البنت التي جاءتني في المنام حقيقة.. وأطاردها في الحقيقة.. أيمكن أن يحدث ذلك دون أن أدري.. إنني والله على وشك أن أخاوي!

لا تضغط بأصابعك على كتفي، كفاني عيناك تنغرسان في أعماقي.. إني أحس بهما تكشفان ما بداخلي من تلاطم واحتدام.

– غرام.. تقول غرام يا حاج علي.. ولكن.

لا أعترض.. كيف يعترض مثلي على مثلك.

كيف يكون الغرام غرما.. والحب هما، والقلب ينزف دما.

لا يا حاج.. لقد وافتك السجعة كما يسجع الحمام علـــى أبراجـــه العالية.

حماك الله من كل سوء.. دعني أنفض ما على صدري أمامـــك.. لا تحرمني متعة أن أستفسر عن كل شيء.. فمن يضمن لي اللقاء بـــك مـــرة أخرى.

– صادق يا حاج.. فالنفس في المنام تأتي بما تعجز عنه في الواقع.

– إلى أين تذهب بي عيناي! أهذا سؤال.. إنها والله دائما مسافرة.. إلا في لحظات تواجدي مع زوجتي.. فهي هامدة جامدة.

امرأتي يا حاج جفت والعين كما يقولون مدرج الهـــوى. وســـفحه أيضا.. صحيح ما تقول.. فما دام هناك مدرج فهناك فخ.

هوت بي النظرة إلى السفح، والله أنك تسخر أحيانا يا حاج.. فهـــل كنت على القمة حتى أتدحرج إلى السفح.

لا تقبض علي هكذا.. ماذا تريد يا حاج أن تستخلصه مني.. والله لا ألف ولا أدور وإنما أنت تداخلني بنظراتك، خفف الوطء قليلا فجسدي لا يقوى على روحك النافذة، إنها تشكني كالإبر.

أنا أعشق البنت!! ونظرتي لا تفارقها كلما مرت بالسوق وأعلنت عن بضاعتها.

– أهي بائعة الكحل!! والله ذكرتني يا حاج.. إن للبنت مشية تميل فيها ولا غصن البان، ونظرة تسرق الكحل من العين.. أتراها يا حاج تسرق ما تبيع!

– أتأدب!! وهل أنا خرجت عن الأدب. مجلسك يا حاج مصون لا يجرحه أحد ولا يمكن أن يخدشه.

– أمعقول يا حاج.. أنا أحب البنت، والبنت تحبني.. أتراها إذن كانت تتمايل من أجلي.. إنها لئيمة.. كانت تضاحكني تحت أشجار البرتقال وتقطف حباتها المدورة.. وتعصر زهورها.. كان وجهها مشربا بصفرة محمرة.. وكانت عيناها كحيلتين.. والله إن الوجه وجه بائعة الكحل.. كانت تجذبني وأتمنع، تضاحكني وأعبث.

– تتعرى وأخجل!!

والله إن ذلك حقيقة.. كانت المحبوبة تتعرى وأخجل.

ولكن كيف عرفت ذلك يا حاج.. وقد جاءني في المنام ولم ينكشف أحد على منامي سواي.

- هذا حق!

قطع لسان اللسان.. والله إنه فيض من فيوضات الرب..

أنت مبرأ من العيوب وموصول.. وأنا محب!

أنا محب!! ربما.. الأمر واضح يا حاج.. لقد كشفتني.

كلي لك.. أيمكن أن يتحقق ذلك.. وأضع يدي على جسم طـري بعدما مللت جفاف أم العيال.. ولكن كيف يا حاج والجدار الذي اسـتند إليه سيهوي!.

- ومن يعرف!

هل تحل بركتك ويصبح الأمر سرا لا يعرفه أحد.

- بسهولة ويسر!!

والله لو طلبت عيني ما بخلت.

- سأراها! تقول إنني سأراها رأي العين.. إذن آن الأوان يـا حـاج أن أشرب القرفة الحراقة التي تدير الرؤوس.

انتظر يا حاج. شربت ما فيه الكفاية.. دعني أرى يا حاج.

إنني كملدوغ.. إنها هي.. التي تحمل طبق الفاكهة.. البرتقال سـيد الفاكهة.. نفس القد المشوق الذي يميل كغصن البان، نفس الضـحكة في العين.. والكحل على الأهداب.. يا ساتر المفضوحين استرنا ولا تفضحنا، إنني لأرى الجسد كله مفرودا أمامي لا تخطئه العين ولا يستره ثوب.. هذا

فوق الطاقة.. إنه المنام نفسه يا حاج.. ولكنني عاتب يا حـــاج.. كيـــف تفضح منامي على رؤوس الأشهاد.. إن عيون الأعيان في مجلسك يلتهمون الصدر والبطن والفخذ.

– لا تضحك يا حاج.. إن الأمر لا يحتمل.. إنني أكاد أجن.. المنام حرمـــة لي.

– أتقول لا يراها أحد سواى.. أصدق.. أصدق يا حـــاج.. حاشـــا لله.. كيف فات على ذهني ذلك.. أنت البركة كلها.. والفيض كله.

نعم إنني أصدق.. أنا فقط من يراها.. لقد أسديت إلي خدمـــة مـــا تصورتها يوما يا حاج.. يا خفي الألطاف.

أتراها أيضا يا حاج.. وأيضا أتيت بها خصيصا لي.

أية خارقة تلك التي حدثت على يديك.

– أريدها! أتسألني يا حاج.. وهل مثلي يرفض إن أردت.

– أنا مصغ يا حاج.. أذني تحت لسانك مباشرة وقلبي مفتوح لما تقول.

– أصدق.. أصدق! هذا القد الفارع من نصيبي.. والله إن حدث سأكون عبدا لك.

– نعم.. نعم.. معاذ الله.. ما أروعك يا حاج علي.

اعذرني.. فنحن هنا سواسية.. هذا صحيح.. لا عبيد ولا أعيـــان. اقبل عذري. فأنت المعلم الأكبر، وأنت قائد الجلسة وصـــاحبها.. كيـــف انزلق مني هذا الوصف.. نعم أنا مثلك.. رأيتها.. أنا مثلك يـــا حـــاج..

خلاص يا حاج.. أنت عبد مثلي تماما.. بالله يا حاج لا ترغمني على قولها ثانية.. خلاص.. خلاص.. أنت عبد.. أنت يا حاج البركة، أنت مقرب القلوب، وواصل المقطوع.. وبئر الهوى. لا ينضب. إنه بئر الهوى وليس بئر الساقية يا حاج.. كما يدعي اللسان.

– أنا مصغ يا حاج.

كلي لك يا حاج.. أذني تحت لسانك.. نعم.. نعم. وهل هذا مطلب يا حاج.. إنه مطلب تافه. دعني يا حاج.. لا تجذبني إليك.. إني سأنهض إليه.. وحياة البنت الحلوة.. لن أشرب القرفة قبل أن أحقق مطلبك.

– مطلبها هي!! هي تريد ذلك؟..

إذن لن تقوم من مقامك يا حاج قبل أن آتيك بالخبر.. ولتنتظرني تلك البنت الحلوة.. سأتيك يا حاج والقرفة لم تبرد بعد.

والله إنه يستحق.. إنه يخوض في البركة.. وينتقص من قدر الواصلين.. ويعكر صفو الأعيان.

والله لأقطعن لسان اللسان. أنا ماض يا حاج.. وسآتيك بالخبر قبل أن تقوم من مقامك.

الخدعة

حكت الجارية للخادم فقالت:

– كان يوما عصيبا.

أسند الخادم مكنسته واستمع إليها. انسابت الريح إلى الأشـــجار – في هذا اليوم – فتمايلت، ومسحت برعشتها وجه الورد فاحمر. ثم مشـــت في تأن وخلاعة فاهتز بساط الخضرة، وتموجت مساحة النجيل، وانحدرت إلى المسبح فضحك الماء، وتكسر الموج. ثم انسلت في خفيـــة فلامســـت الساق المفرودة فجفلت، فخبطت الأميرة الماء بجـــذل، وألقـــت بنفســـها وغاصت إلى العمق.

جمعت في كفيها الماء ورنت إلى خيوطه الرفيعة تنسرب من فرجـــات الأصابع، داعبها ضوء الشمس فعلت شفتيها بسمة فاترة ولوحت بيـــدها وخرجت. استنامت في خدر المنتشي على أريكة مجدولة من وبـــر نـــاعم الملمس. نفضت رأسها فتهدل الشعر. وامتدت الأيدي تـــدعك الجســـد، وتلقط المناشف بقايا الماء.

وحين انسدل الشعر على كتفيها كخيوط الليل، تجمع الفتيان المـــرد ذوو العيون الكحيلة، والحواجب المزججة، والطواقى الحمـــراء الموشـــاة بالأخضر مذهب الحواف. أحاطوها وصنعوا من أيـــديهم قاربـــا مفـــرود الشراع. وتلوت الأميرة على دقات الطبلة.. وحين رق العود برقت العين وارتخى الجفن.

حملها الفتيان إلى جناحها، وزخم العطر يدغدغ الحس، وغيم البخور يقطر رائحة ذكية، لهثت الأنفاس، وانداح العنبر، على سطح المشروب الساخن. أشارت بيدها، فأسدل الستار، واستبقت الفتيان. ...

فرح الأمير وعجز أن يكتم فرحته، فضحك ضحكة رائقة خرجت من قلبه وغطت وجهه. كانت الضحكة غريبة لطول عبسة على الجبين كانت تلازمه. أسعده فرح الأميرة ففرح. ولاحت سعادتها بادية فسعد. وظل موكب الفتيان عالقا بذهنه فتمتم:

– ما أروعهم .. لولاهم لظلت الأميرة متأبية ومشاكسة.

نادى على الجارية فجاءت مهرولة وأمسكت بالعود وعزفت. تململ على أريكته فاحتوته بنظرتها وابتسمت.

في هذا اليوم الذي حركت فيه الريح كل شيء لم يعد الأمير رشيقا كما كان. اكتنز جسمه، وتهدل صدره وكثر لهاثه. حدق في ثمرة الرمان وقد تفتق قشرها ولاح حبها أحمر داميا فعاودته عبسة مفاجئة. كان حال القصر لا يعجبه. ولم ينس في خلوته وطربه أن الأيام تعاكسه، وأن الأميرة تواصل عنادها، وأن القصر امتلأ بالفتيان والغلمان المرد من كل لون جنس، وأن الأميرة توزع وقتها بين الألوان والأجناس. وحط عليه حزن مفاجئ داهمه كالمطرقة.. في هذا اليوم خلطت الأميرة بالأجناس ودخلت بهم جناحها.. نحى في قسوة واضحة لحظة الفرح الطارئة فحزنت جاريته واغتمت.

نظر إليها في همود وقال في أسى:

- ما عاد القصر يريح النفس.

احتضنت الجارية العود وبسطت يدها:

- لا تشغل بالك يا أميرى.

رنا إليها في تساؤل:

- لم أعد أرى أحدا منهم.. أين هم؟

نظرت إليه في حذر وقالت:

- ألم ترهم يا أميري منذ لحظة؟

ابتسم الأمير ساخرا وقال:

- لم أقصد الأميرة وفتياها.

تنهدت الأميرة في عمق:

- من تقصد يا أميري؟

أشار بيده إلى المكان:

- أخشى أن يكون خدم النظافة قد انضموا إليها أيضا!!

كتمت الجارية ضحكة كادت تزلزلها:

- سحرهم أميرتي. تمتتم في انتشاء:

- ما أروعها يا جارية! لم تقو على إزاحة ضيق أصابها فجأة، فقالت في غل:

- كانت قبل أن يسحروها يا أميري.

– وكيف كان ذلك؟.

– احتووها فلم يبق منها شيء.

– أعرف أنك تخففين عني.

– لا يا أميري، اليوم ليس للضحك. فلم تعد أميرتي سوى مصاصة ناشفة.

– لولا أنك جاريتي لأوسعتك ضربا بالسوط.

– لولا أنك الأمير الحبيب ما بحت لك.

حدق فيها في قسوة، وتهدل صدغه ومال كتفه، نكس رأسه وهمس:

– زيديني يا جارية.. قولي ما عندك.

– أعطني الأمان يا أميري.

– أنت آمنة.. وأنت تعرفين.

نهضت الجارية. واستقام عودها. وأخذته بين يديها وهمست:

– خصيان القصر يا أميري.. فحول أقوياء.

انتفض الأمير، وسقطت عمامته، صوب بصره تجاه الجناح واندفع.

...

حكت الجارية للخادم، أن الأمير ظل في الجناح زمنا ثم خرج هو والأميرة.. كانا يتلويان على أيدي الفتيان المرد.

هز الخادم رأسه، وواصل كنسه.. فمنذ أن اختفى الأمير لم تمتد يد لإزالة المخلفات.. ولم ينتبه وهو يكنس أن عمامة الأمير رأيتها.. أنا مثلك

يا حاج.. خلاص يا حاج.. أنت عبد مثلي كانت بين كومة المخلفـــات في طريقها إلى المحرقة.

الفهرس